

حَرْفُ الْغَايَةِ أَفْهَمُ الْمَخْصَمِ

عِنْدَ جَرَيَانِ النَّظَرِ فِي أَحْكَامِ الْقَدَرِ

تأليف
شَيْثِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ حَيْدَرَهُ
المعروف بابن الحاج القفطي
المتوفى سنة ٥٩٨ هـ

تحقيق
عبد الله عمر البارودي



حزب العمال
الحزب الشيوعي

عند جريان النظر في أحكام القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حِجْرُ الْغَمِّ لِحَمْدِ

أَفْجَعِ الْمَخْصِمِ

عِنْدَ جَرَّيَاكَ النَّظَرِ فِي أَحْكَامِ الْقَدَرِ

تأليف

شَيْثُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ حَيْدَرٍ
المعروف بابن الحاج القفطي
المتوفى سنة ٥٩٨ هـ

تحقيق

عبد الله عمر البارودي

مُلْتَزِم الطَّبْع وَالشَّرْ وَالْتَوَزِيْع
مؤسسة الكتب الثقافية و مركز الخدمات والابحاث الثقافية
الطبعة الأولى
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م



مركز الخدمات والابحاث الثقافية
ص. ب. (٥٠٨٣) - ١٤
هاتف ٣١٢٠١٧
بيروت - لبنان



مؤسسة الكتب الثقافية
ص. ب. (٥١١٥) - ١١٤
هاتف ٣١٢٠١٧
برقياً: الكتبيكو
بيروت - لبنان

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المتقين، وقائد الغر المحجلين، سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله الذي بعثه الله رحمة وهدى للمؤمنين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين أجمعين.

وبعد، فإن عقيدة الإسلام توافق العقل السليم الذي هو شاهد للشرع، الذي لا يأتي إلا بمجوزات العقل. وكلمة الشهادة «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله» هي الكلمة التي يُدخل بها في دين الإسلام لمن كان على غير الإسلام. ومعناها اجمالاً أنه لا معبود بحق إلا الله، الواحد الأحد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنه يتصرف في ملكه كما يشاء، وأنه ليس كمثله شيء، وأن كل شيء دخل في الوجود بمشيئته تعالى ويتقديره وعلمه، وأنه أرسل سيدنا محمداً القرشي الهاشمي، وأنزل عليه كتاباً أحكمت آياته، وأنه أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، وصبر حتى صارت كلمة الله هي العليا.

ثم لما توفي النبي ﷺ، ارتد أناس في الأطراف، وامتنع أناس عن أداء الزكاة، حتى قام سيدنا أبو بكر بقمع هذه الفتن.

ثم وجد الفتانون في عهد الفتن مرتعاً خصباً لبذر الشر والفساد، فبدأوا يسعون جهدهم في تفريق كلمة المسلمين بشتى الوسائل، فكانت الخوارج، ونشأت المعتزلة وغير هؤلاء من الفرق وهكذا عمت البلية، وشملت المصيبة إلى أن بلغ عدد أصول الفرق وفروعها عدداً كبيراً، فتحقق كلام النبي ﷺ في افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة.

وقد كان للعلماء سعي مشكور في دفع الشبه، وإبطال التمويه والفساد فألفوا كتباً عديدة.

وإن الفقيه شيث بن إبراهيم بن حيدرة المعروف بابن الحاج أحد العلماء المؤلفين في هذا الشأن للدفاع عن الدين.

وسبب اختياري لهذا الكتاب أن الأستاذ كمال يوسف الحوت قد أخبرني أنه اطلع على هذا الكتاب في مكتبة عارف حكمت في المدينة المنورة فأشاد به ومدح أسلوب المؤلف إذ أنه استخرج الآيات القرآنية للرد على المعتزلة، ولكن لم يتم له تصوير هذا الكتاب فقام بتسجيله، ثم عرضه على النسخة الأخرى التي تم الحصول عليها في مكتبة حلب فجزاه الله عنا كل خير.

وقد ذكر الإمام الاسفرايني في كتابه التبصير في الدين ص / ٦٣ : أن المعتزلة ينقسمون إلى عشرين فرقة فعددهم مع ذكر فضائهم فمن شاء فليراجع.

وأخيراً فإنه يسرنا أن نخرج هذا الكتاب للقراء مع الملاحظة أنه يطبع لأول مرة والله سبحانه يوفقنا للخير، وأن ينفعنا بهذا العمل.

عبد الله البارودي

مدير

مركز الخدمات والأبحاث الثقافية

ترجمة المؤلف

قال ابن فرحون في الديباج المذهب: شيث بن ابراهيم بن محمد بن حيدر بن الحاج ضياء الدين أبو الحسن، كان فقيهاً فاضلاً نحوياً بارعاً، وله في الفقه تعاليق ومسائل، وله في النحو تصانيف، منها:

- المختصر.
- والمعتصر من المختصر.
- حز الغلاصم في إفحام المخاصم.
- وكتاب تهذيب ذهن الواعي في إصلاح الرعية والراعي.
- ولطائف السياسة في أحكام الرئاسة.
- وذكر السيوطي في بغية الوعاة كتاباً له: حسن العبارة. وقصيدة في اللغة^(١).

وذكره النفطي في تاريخ النحاة وقال: كان فقيهاً نحوياً لغوياً عروضياً زاهداً، أجاز له أبو القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الحباب، وأبو الطاهر إسماعيل بن عوف، وأبو الحجاج يوسف بن علي القضاعي، وحدث عن أبي الطاهر السلفي، وكان حسن العبادة لم يره أحد ضاحكاً ولا هازلاً، وكان يسير في أفعاله وأقواله سيرة السلف الصالح، وكان

(١) قال السيوطي أن هذه القصيدة ذكرها في الطبقات الكبرى.

ملوك مصر يعظمونه ويرفعون ذكره على كثرة طعنه عليهم وعدم مبالاته
بهم ونحل جسمه وكف بصره؛ ومن نظمه:

اجهد لنفسك إن الحرص متعبة للقلب والجسم والإيمان يرفعه
فإن رزقه مقسوم سترزقه وكل خلق تراه ليس يدفعه
فإن شككت في أن الله يقسمه فإن ذلك باب الكفر تقرعه
وله:

هي الدنيا إذا اكتملت وطاب نعيمها قتلت
فلا تفرح بلذاتها فباللذات قد شغلت
وكن منها على حذر وخف منها إذا اعتدلت
مولده بقفط، قرية من قرى مصر، وتوفي سنة ثمان وتسعين
 وخسمائة عن ثمان وثمانين سنة.

(* مصادر الترجمة:

- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب. للقاضي برهان الدين بن فرحون المالكي. ص ١٢٨ - ١٢٩.
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. لجلال الدين السيوطي تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، ٤٥٤/١.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. لجلال الدين السيوطي. تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، ٦/٢.

وصف النسخ الخطية

هناك نسختين خطيتين للكتاب، الأولى:

- نسخة كتبت بخط مشقٍ مستعجل متشابك، ذكر كاتبها أنه تم كتابتها عام /٦٨٣/ هـ ولم يصرح عن اسمه. وجعلت أوائل المسائل بالحمرة، ويشتمل الكتاب على قسمين وختمه المؤلف بفصل في ذم القدرية. موجودة بالمكتبة العثمانية الرضائية، تحت رقم العقائد /٥٧٧ مج، وهذه النسخة كانت العمدة في تحقيق الكتاب.
- أما النسخة الثانية فموجودة بمكتبة عارف حكمت في المدينة المنورة ولم نستطع الحصول على صورة عنها مما دفعنا إلى أن نعرض النسخة الأولى على نسخة عارف حكمت لمقارنتها.
- وهذه النسخة مجهولة التاريخ والناسخ.

خطة التحقيق

- اعتمدنا في تحقيقنا كما ذكر على النسخة الأولى ثم قوبلت على النسخة الثانية.
- خرجنا الآيات القرآنية الواردة بالمخطوط بعزوها الى سورها وأرقام الآيات.
- خرجنا الأحاديث بعزوها الى روايتها.

- علقنا على بعض المسائل في التفسير.
- شرحنا بعض المبهمات وبعض العبارات والمصطلحات.
- خرجنا تراجم بعض الرجال.
- صدرنا الكتاب بترجمة عن المؤلف وعن حياته ومشايخه ومؤلفاته.
- وذلنا الكتاب بفهرس موضوعي .
- وأخيراً ذكرنا المراجع المعتمدة في تحقيق الكتاب.

3 1/2

کتاب حضرت العلاء بن مرثد فی الحمام المفاخر

في يوم من الأيام في احد حبيبات ام القدير
 مايف الشيخ الفقيه الامام العالم العالم حجة
 الاسلام صاحب الزين والحمد لله رب العالمين
 محمد بن حيدر ادام الله نوريته وعلو الاطراف

بسم الله الرحمن الرحيم
 الحمد لله الذي هدانا لهذا
 الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
 والحمد لله رب العالمين
 وعلم الله وأصحابه المحققين
 في الحقايق والحقائق
 وحسن التدوين والشرح

أتم الكاتب كتابة هذا الكتاب
 عام ١٦٨٢ هـ

حِزْبُ الْغَسَّالِ صَمَلٍ
يُفِي
أَفْخَمُ الْخَصْمِ صَمَلٍ

عِنْدَ جَرِيَّانِ النَّظَرِ فِي أَحْكَامِ الْقَدَرِ

تَأْلِيفُ

شَيْثُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ حَيْدَرِهِ
الْمَعْرُوفُ بِأَبِي الْحَاجِّ الْقَطِيطِيِّ

الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٥٩٨ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الشيخ الفقيه الامام حجة الاسلام ضياء الدين أبو الحسن شيث بن إبراهيم بن محمد بن حيدر غفر الله له وعفا عنه :

الحمد لله ناصر الحق ومعليه ، وخاذل الباطل ومتبعيه ، والصلاة على إمام الهدى محمد المصطفى ، وعلى آله أهل الصدق والوفى ومن والا هم ويهديهم اهتدى ، وسلامه وتحياته عليهم إلى يوم الجزاء .

سألت نور الله باطنك بأنوار الايمان ، وزين ظاهره بوظائف الاسلام ، واستعملك في الدنيا بمتابعة السنة ، وأسعدك في الأخرى بجواره في الجنة ، ولا سلبك في المحيا ثوب التقوى ، وأكرمك في الحسنى بطيب المثوى عند المجاورة وجريان المذاكرة ، أن أنتزع الآيات التي في كتاب الله تعالى ، المتضمنة إقامة الحجة على صحة إعتقاد أهل السنة في إرادة الكائنات المنوطة بخلق أفعال العباد ، وأنها متعلقة بمشيئة وإرادته دون خلقه .

وأن الخلق ليس لهم فيها إلا نوع إكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة ، وأن ذلك كله إنما حصل لهم بتيسير الله تعالى وتقديره وإهامه وتوفيقه ، فله الخلق والأمر والتقدير والتدبير والتيسير والتعسير ، وبيده الهداية والاضلال والطاعة والعصيان والكفر والايمان .

ولا يجري في ملكه وملكوته خير أو شر ، نفع أو ضرر ، فوز أو خسر ، حياة أو موت ، غنى أو فقر ، حلو أو مر ، سر أو جهر ، وفاء أو غدر ، نصح أو مكر ، عرف أو نكر ، حركة أو سكون ، قيام أو قعود ، قبض أو بسط ، إيمان أو كفر ، إلا بإرادته ومشيبته وعلمه وقدرته .

فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

كما روي أن قدرياً دخل على الصادق جعفر بن محمد^(١) عليهما السلام ، فقال له : يا ابن بنت رسول الله تعالى الله عن الفحشاء ، فقال له جعفر الصادق : يا أعرابي وجل ربنا أن يكون في ملكه ما لا يشأ ، فقال القدري : يا ابن بنت رسول الله أيحب ربنا أن يعصى ؟ قال : يا أعرابي أفيعصى ربنا قهراً ، قال : يا ابن بنت رسول الله أرأيت إن صدني الهدى فسلكت بي طريق الردى ، أحسن بي أم أساء ، فقال عليه السلام : إن منعك شيئاً هو لك فقد ظلم وأساء وإن منعك شيئاً هو له فإنه يختص برحمته من يشاء . فأفحم القدري وبهت ولم يجد جواباً . وهذا كلام حجته فيه ، فما يحتاج إلى بيان ولا إقامة برهان ، ولكن لا ينتفع به . إلا من خلقه الله للجنة .

فأما من خلقه للنار فلا يسمعه ولا يلج في جوانح قلبه ، لأن الله تعالى لم يخلق له سمعاً يعيه به ، ولا بصيرة ولا فهماً فإن الله تعالى يقول في محكم كتابه : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَآلَا نَعْمَ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾^(٣) .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا

(١) سير أعلام النبلاء ٢٥٥/٦ : هو جعفر بن محمد عليه السلام بن علي بن الشهيد أبي عبد الله ، ريجانة النبي ﷺ وسبطه ومحبوه الحسين ابن أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب ، ولد سنة ثمانين وتوفي في سنة ثمان وأربعين ومئة .

(٢) ١٧٩ : الأعراف .

(٣) ١٢٦ : البقرة .

لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴿١﴾

وقال في آخرين: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَكُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ ﴿٢﴾.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ﴿٣﴾.

ثم قال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ ﴿٤﴾.

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ ﴿٥﴾ فعم بالدعوة ثم قال: ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٦﴾ فخص بالهداية.

وقال تعالى لنبية ﷺ في شأن من كان حريصاً على هدايته ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿٧﴾.

ثم كرر الدعاء لقومه، وأظهر الشفقة عليهم وهم معرضون عن إجابته، أنزل الله تعالى عليه ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلُبًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِغَايَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٨﴾.

ثم تمنوا عليه أمانتي، وأقسموا بالله لئن أتاهم ما يمتنون ليؤمنن به، فأنزل الله

(٥) ٢٥ : يونس .

(٦) ٢١٣ : البقرة .

(٧) ٨ : فاطر .

(٨) ٣٥ : الأنعام .

(١) ١٦٨ : النساء .

(٢) ١٧٦ : آل عمران .

(٣) ٢٤ : الأنعام .

(٤) ٢٤ : الأنفال .

على نبيه ﷺ مجيئاً لهم عن تنبيههم وقسمهم ، فقال تعالى :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ^(١) ۝

ثم لما كان خبيراً بحالهم ، وعالماً بما لهم أنزل على نبيه ﷺ في شأنهم ، تبأ لهم ووعيداً وتقريعاً وتهديداً وتخريساً عليهم وتنكيلاً فقال :

﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ^(٢) ۝

وقال تعالى عقيب هذه الآيات :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ^(٣) ۝

فانظر كيف جزم وقطع بأنه لو فعل لهم ما تمنوه لما آمنوا إلا أن يشاء الله ، وكذلك ما يفعله شياطين الأنس والجن بالأنبياء وعداوتهم لهم ، وما يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، فقال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ^(٤) ۝ فعلق ما صدر من غرورهم وعداوتهم للأنبياء عليهم السلام بمشيئته جل جلاله ، ومثله قوله تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ

(١) : ١٠٩ ، ١١٠ : الأنعام .

(٢) : ١١١ : الأنعام .

(٣) : ١١٢ : الأنعام .

(٤) : ١١٢ : الأنعام ، وقد مرّت قبلها .

وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرِيبِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾
 قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا
 يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿٨٩﴾.

فانظر إلى الأنبياء عليهم السلام كيف تفتنوا لقدر الله ، وأن جميع الكائنات
 منوطة بمشيئة الله سبحانه ، ولذلك قال بعض الموحدين : مساكين القدرية خالفوا في
 اعتقادهم قول الله سبحانه ، وهو ربهم وخالقهم ومالكهم وإليه مآلهم ومرجعهم ،
 وخالفوا الملائكة الذين هم خاصة الله ، والعارفون بالله وصفاته وهم أحق بمعرفة
 الاله جل جلاله وبصفاته وأحكامه في خلقه ، وهم القائلون مع ذلك ﴿لَا عِلْمَ لَنَا
 إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(٢) وخالفوا أنبياء الله وهم خزنة وحيه ،
 والمصطفون من خلقه وخالفوا أهل الجنة ، وخالفوا أهل النار ، وخالفوا شيخهم في
 الضلال إبليس ، ورجعوا في إعتقادهم إلى سوء رأيهم وما زين لهم ، ولم يجدوا عيصاً
 ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾^(٣).

أما مخالفتهم لقول الله تعالى

فإنه سبحانه يقول: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ
 مِنِّي لَا مُلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(٤).

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٥).

(١) ٨٨ ، ٨٩ : الأعراف .

(٢) ٣٢ : البقرة .

(٣) ١٣٧ : الأنعام .

(٤) ١٣ : السجدة .

(٥) ١٠٠ : يونس .

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ أَلاَ يَمُنَ زَيْنُهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾^(١).

ثم مدحهم على ما خلقه فيهم ، وحببه إليهم وزينه في قلوبهم ، وما كرهه إليهم وهو من عظيم كرمه وإحسانه وفضله وامتثانه كما يفعله ملوك الدنيا مع خواصهم فيما تشاهده العيان. ينعم عليه بحسن اللبوس والزينة في المركوب والخيال المسومة والسلاح وآلة الحرب المحملة ، فإذا عرض عليه الجنود والجيوش في يوم الزينة وأعجبه زي بعض خواصه استحسنته وقال: ما رأيت في الجيوش وزي العساكر أطرف من فلان ، ولا أزين من زيه .

وإذا حسنَ من المخلوق هذا القول ، فهو من خالق الخلق وأعمالهم أحسن وأحسن ، فقس على ذلك جميع ما ورد في القرآن من الثناء الجميل على صاحبه ، والكل من صنع الله وخلقته ، مثل قوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّاجِدُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾^(٣) لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ^(٤).

أهمهم لفعل الخير والأعمال الصالحة من تلاوة كتابه الكريم ، وإقام الصلاة ونفقة المال ، وهو الذي أعطاهم جميع ذلك ويسرهم له ويسره عليهم . ثم تفضل

(١) ٧ : الحجرات .

(٢) ١١٢ : التوبة .

(٣) ٢٩ ، ٣٠ : فاطر .

عليهم ومدحهم عليه وشكرهم ، ثم سمي ما يجازيهم به على ذلك أجراً ، ومن أين يستحق العبد المربوب المخلوق المملوك على خالقه وربّه ومالكه والهِه ومعبوده أجراً ، لولا جميل إحسانه وعظيم إمتنانه وجزيل كرمه وعطائه لا عَدِمْنَا ذلك الفضل العظيم والطول الجسيم .

وقال تعالى في آخر هذه السورة ما يوافق أولها ويزيده وضوحاً لمن أراد الله به خيراً وفهمه كتابه: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿ مِنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾^(٢).

والآيات في مثل هذا الفن لا تحصى ، قد ذكرها الشيخ الفقيه الامام الأوحد أبو القاسم عبد الرحمن بن الحسين ، بن الجَبَّاب^(٣) رحمه الله عليه فيما أملاه علي ، وهو كتاب « الاملاء » له في مجلدين .

وأما قول الملائكة

فقلت: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾^(٤).

(١) ١٧ : الحجرات .

(٢) ١٧ : الكهف .

(٣) كذا في المخطوط ، الجَبَّاب بالجمع المعجمة المحركة . وفي « الديباج المذهب » لابن فرحون ، الجباب بالحاء المهملة .

(٤) ٣٢ : البقرة .

وأما قول الأنبياء عليهم السلام

فقد قال شعيب: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾^(١).

وقال نوح عليه السلام: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٢).

وقال إبراهيم: ﴿لَنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾^(٣).

وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿١٩﴾﴾ الآية.

أفرده بالهداية كما أفرده بالخلق والرزق والشفاء والامانة والاحياء والمغفرة يوم اللقاء.

والامامية^(٥) والقدرية^(٦) في هذه الآيات يؤمنون ببعضها، ويكفرون

(١) ٨٨: هود.

(٢) ٣٤: هود.

(٣) ٧٧: الأنعام.

(٤) ٧٨، ٧٩: الشعراء.

(٥) التعريفات للجرجاني ص/٥٣: هم الذين قالوا بالنص الحلبي على إمامة علي رضي الله عنه، وكفروا الصحابة، وهم الذين خرجوا على علي رضي الله عنه، عند التحكيم وكفروه. وفي التبصير ص/٤١: واعلم أن الزيدية والامامية منهم من يكفر بعضهم بعضاً، والعداوة بينهم قائمة دائمة. . واعلم أن جميع من ذكرناهم من فرق الإمامية - فهم خمس عشرة فرقة - متفقون على تكفير الصحابة، ويدعون أن القرآن قد غير عما كان، ووقع فيه الزيادة والنقصان من قبل الصحابة، ويزعمون أنه لا اعتماد على القرآن الآن، ولا على شيء من الأخبار المروية عن المصطفى ﷺ، ويزعمون أنه لا اعتماد على الشريعة التي في أيدي المسلمين. .

(٦) التعريفات للجرجاني ص/٢٢٢: القدرية هم الذين يزعمون أن كل عبد خالق لفعله، =

بعضها، يَبْدُ أنه لو قيل لهم: من خلق إبراهيم الأواه؟ لقالوا: خلقه الله، ولو قيل لهم: من أطعمه وسقاه؟ لقالوا: هو الله، ولو قيل لهم: من أمرضه وشفاه؟ لقالوا: هو الله، ولو قيل لهم: فمن أماته وأحياه؟ لقالوا: هو الله، ولو قيل لهم: من يغفر له يوم يلقاه؟ لقالوا: هو الله، ولو قيل: فمن الذي إلى الإيمان هداة، قالوا، ولم يستحيوا: هو الذي هدى نفسه، ولم يهده الله. ونفوا عن الله سبحانه هدايته لإبراهيم وهداية المهتدين أجمعين وأثبتوا له جميع ما تضمنت له هذه الآيات فليت شعري من الذي قصر قدرة الرب سبحانه وإرادته على بعض المقدورات والمرادات، آله مع الله، آله دون الله، تعالى الله عما يشركون.

وهكذا فعلت الحشوية^(١) إذا قيل لهم: أنتم تقولون معنا إن الاله جلّ جلاله يعلم بغير قلب، ويبطش بغير جارحة ويخلق بغير آلة، ويسمع بغير أصمخة وأذان، ويبصر بغير حدقة وأجفان، فما باله أيضاً يتكلم بغير صوت وحرف فيكون كلامه سبحانه كما قال النبي ﷺ: « فضل كلام الله على كلام البشر كفضل الله على خلقه »^(٢). ووجدنا فضل الله على خلقه في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٣) فيجب أن يكون ليس كمثله كلامه كلام. وإذا كان عندهم أن كلام الله صوت وحرف، وكلام المخلوقين صوت وحرف، فقد صار كلامه مثل كلام المخلوقين، فلا فضل لكلامه على كلام البشر، وعرضوا كلام رسول الله ﷺ للكذب في قوله عليه السلام: « فضل كلام الله على كلام البشر كفضل الله على خلقه ».

وكذلك ما قاله شعيب في الآية المتقدمة وهي قوله:

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾^(٤).

■ ويرون الكفر والمعاصي بتقدير الله، أنظر أيضاً التبصير في الدين ص/ ٢١ والفرق بين الفرق ص/ ١٨.

(١) تاج العروس ٩/ ١٠: الحشوية طائفة من المبتدعة.

(٢) رواه الترمذي في السنن أبواب فضائل القرآن ٢٥٦/ ٤ الباب الثاني من أبواب ما جاء كيف كانت قراءة النبي ﷺ بلفظ: «... وفضل كلام الله على سائر الكلام...» وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٣) ٨٩: الأعراف.

(٤) ١١: الشورى.

وقال موسى عليه السلام : ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ﴾ ^(١) .

فهذا قول أنبيائه وهم أعرف خلق الله بربهم وبصفاته ، وكل ما ينطقون به فهو مستفاد من بآرائهم كما قال تعالى في الأخبار عن المصطفى ﷺ :

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (١٠١) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ ^(٢) .

ألا ترى أن موسى صلى الله على نبينا وعليه حيث قال لربه في مناجاته

﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ ^(٣) .

إنما استفاد ذلك من قوله تعالى في شأن قومه الذين عبدوا العجل ، الذين اتخذهم السامريُّ لهم من الخلي ^(٤) ، وقالوا : هذا إلهكم وإله موسى ، وكان في حال المناجاة ، فقال له ربه ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ﴾ ^(٥) فلما رجع إلى قومه ورأى العجل منصوباً للعبادة وله خوار . قال ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ ^(٦) .

(١) : ١٥٥ : الأعراف .

(٢) : ٤ ، ٣ : النجم .

(٣) : ١٥٥ : الأعراف .

(٤) القرطبي ٢٣٣/١١ : قال ابن عباس رضي الله عنها : كان السامري من قوم يعبدون البقر ، وقيل : كان رجلاً من القبط ، وكان جباراً لموسى آمن به وخرج معه . وقيل : كان عظيماً من عظماء بني إسرائيل من قبيلة تعرف بالسامرة وهم معروفون بالشام ، قال سعيد بن جبير : كان من أهل كرمان .

(٥) : ٨٥ : طه .

(٦) : ١٥٥ : الأعراف .

وأما قول أهل الجنة

فإنهم قالوا لما دخلوها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾^(١).

وأما قول أهل النار

فإنهم قالوا لما اختصموا، ما حكاه الله عنهم، حيث قال سبحانه:
﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعِفَاتُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾^(٢).

وفي قوله تعالى ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا - إِلَىٰ قَوْلِهِ - قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٣).

والمعترلة يقولون: إن هداية الله لعباده إرسال الرسل، وإنزال الكتب وهذه الآية تكذبهم وتذري عليهم في اعتقادهم في الآيات التي في هذا الكتاب أيضاً حيث قالوا: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾^(٤). فإن كانت الهداية إرسال الرسل، وإنزال الكتب فقد هداهم الله، فلم قالوا: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾^(٥). فتدبر الاثنان جميعاً يظهر لك فساد إعتقادهم من كل وجه. وأحمد الله وأشكره على الاسلام والسنة والهداية والتوفيق.

(١) ٤٣: الأعراف.

(٢) ٢١: إبراهيم.

(٣) ٧١: الزمر.

(٤، ٥) أنظر تخريج الآية رقم ٢.

وأما قول شيخهم إبليس :

الذي أطاعوه في كل ما زينه لهم ولم يطاعوه في هذه المسألة فإنه قال :
﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾^(١).

والامامية منهم يلقتون أولادهم في حال الصغر فيقولون لهم : ما أحق السنة ، يعتقدون أن الله هو الذي يضل ويهدي ، ويزين المعاصي للعاصي ، وإنما الانسان هو الذي يفعل بنفسه ما يشاء دون خالقه . ويوردون على الصبي حكاية عن إبليس اللعين ، وآدم عليه السلام ، إبتدعوها من تلقاء أنفسهم لم تكن قط ، اجتمع آدم صلى الله على نبينا وعليه وإبليس يوماً ، فقال آدم عليه السلام لإبليس : لولا أنت أغويتني ما عصيت ربي ، قالوا : فقال إبليس : يا آدم فمن أغواني أنا حتى عصيت ربي ؟ وقصدهم أن يتلقف أبناؤهم هذه ، إن الله سبحانه لما أمر إبليس بالسجود أراد سجوده ، فخالف إبليس أمر الله وعصى واستكبر وأبى كما أخبر الله سبحانه عنه ، ولو كان مطيعاً لسجد . قلت له : فقد أمر الخليل إبراهيم عليه السلام بذبح الولد ولم يرد ذبحه ، ولو أراد ذبحه كما أمره لذبحه وهو نبي معصوم مطيع لله تعالى منزّه عن المخالفة وعن الجهل بما أمره الله تعالى ، وعن الجهل بصفات الله تعالى .

ولا يشك أحد أن إبراهيم أعرف بالله وبصفاته من القدرية والمعتزلة والامامية . فقال : ما أمره قط وإنما رأى مناماً قلت : منامات الأنبياء وحي وحق ، وهي من أمر الله سبحانه وقد أمره في المنام بذبح ولده عليه السلام .

ووجه آخر

إن إسماعيل نبي كريم على الله ، ومعصوم عن الخطأ والزلل فيما ينطق به من أحكام الله ، وقد قال لأبيه إبراهيم عليهما السلام حين قال له ﴿ يَبْنِيْ لِىْ اَرَى

(١) ٣٩ : الحجر .

فِي الْمَنَامِ أَتَى أَذْبَحَكَ فَأَنْظَرُ مَاذَا تَرَى^(١) فَأَجَابَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَعَلَ مَا تُوْمَرُ﴾^(٢) وحاشاه أن يقول لأبيه الخليل: إفعل ما تؤمر وهو لم يؤمر، ولكان إبراهيم يقول: يا بني ما أمرتُ وإنما رأيت في النوم أنني أذبحك فأخذ يدندن ويتلعثم ويجمجم ويقول: قد وُجِدَ للذبيح والتأم حلقه وهذا منه حركة المذبوح، وخجل المحجوج، ولهذا سميناه «الرسالة الذابحة للكلاب النابحة». وقد سميناه هذا الكتاب باسم مشتق منه في المعنى فسميناه «حز الغلاصم في إفحام المخاصم» كل هذا فراراً من الإنقياد للحق، وحسداً لمن عثر عليه دونه، وحرصاً على تصحيح اعتقاده، إن الإرادة هي نفس الأمر والباطل لا يقبل البصيرة أبداً، ولا يتمشى أبداً، كيف يكون الذبيح قد وُجد والله تعالى يقول: ﴿وَقَدَّيْنَاهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ﴾^(٣) فلا معنى للفداء إن كان الذبيح قد وجد، وكان هذا القائل إماماً عظيماً عندهم، كبير الشأن يزعم ويزعمون أنه لا تفلح له حجة ولا تقصم له عُرْوَةٌ.

وما أحسن ما جرى بين مجوسي^(٤) وقدرى، وهما في اعتقاد هذه الأمة سواء، لأن المجوس يقولون: بآلهين ويسمون الشنوية لذلك. وقد جاء حديث عن النبي ﷺ يقول فيه: «القدرية مجوس هذه الأمة»^(٥) من حيث أنهم جعلوا مع الله شركاء كثيراً، فالخلق عندهم خالقون لأفعالهم حسننها وقبيحها، والمجوس يجعلون مع الله شريكاً واحداً يخلق الشر لا غير. وهؤلاء يقولون: إن الخلق يخلقون إيمانهم وكفرهم وطاعتهم وعصيانهم.

ولقد جرت هذه المسألة للشيخ الفقيه الامام الرشيد جمال الفقهاء أبي الطاهر

(١) ١٠٢: الصافات.

(٢) ١٠٢: الصافات.

(٣) ١٠٧: الصافات.

(٤) ذكر أبو منصور الماتريدي في التأويلات في اثبات مغايرة الإرادة للامر: «إن الله أمر إبراهيم بالذبيح وفداه بكبش فلا يجوز أن يكون أراد فعل حقيقة الذبيح ثم يمنعه عنه بالبدل لأنه آية البلاء وعلامة الجهل فكان الأمر لا بالذي به حقيقة الإرادة».

(٥) رواه أبو داود في السنن كتاب السنة ٢ / ٢٧٠ باب في القدر.

إسماعيل بن مكّي بن عوف^(١) أعزّه الله في مجلس رضوان بن [الوحشي]^(٢) وهو سلطان مصر مع رجل من كبار الامامية يُقال له ابن الصغير سأله رضوان أن يتكلم معه في هذه المسألة.

قال الشيخ الفقيه أبو طاهر في كتاب صنفه لرضوان هذا فيه الرد على الامامية يقال له: «كفاية المقتصد ونهاية المجتهد» قرأته عليه رضي الله عنه، وهو كتاب مفيد جداً. أودع مناظرته معه في هذا الكتاب يقول فيه: سألته عن خلق الأفعال التي تصدر عن العباد أهى خلق الله أو خلق لهم. قال رضي الله عنه: فسألته بلفظ القرآن لعله يتنبّه أو يستحي فقلت له: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾^(٣). ففكر ساعة ثم قال: الله خالق أفعاله والانسان خالق أفعاله، قال: فقلت: إنفرد الانسان بخلق أفعاله واستبد بها؟ قال: نعم، قال: فقلت له: يا هذا لقد أشركت بالله، فقال: ومن أين أشركت بالله، وتناول لها رضوان وأصغى إلى ما ألقى، فقلت: من جملة أفعال الانسان، وهو أشرف من سائر المخلوقات كلها، الجواهر وبقية الأعراض. فقد صار ما خلقه الانسان أشرف مما خلقه الله تعالى، والله يقول:

﴿ مَا آتَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾^(٤).

وإذا كان الانسان هو خالق الايمان وهو أفضل وأشرف من بقية المخلوقات، فقد ذهب الانسان بما خلق، وذهب الله بما خلق، وعلا الانسان على رب العباد جلّ ذلك الجلال، أن توزن صفاته بميزان عقل الامامية، وأهل الاعتزال، فتأمل راشداً هذا السؤال، وهذا الجواب وهذا الإفحام في هذا المقام.

(١) هو إسماعيل بن مكّي بن عيسى بن عوف الزهري الاسكندراني المالكي أبو طاهر متكلم توفي سنة ٥٨١ هـ. انظر شذرات الذهب ٤/٢٦٨، الديباج ص/٩٥، ٩٦.

(٢) أما في المخطوط: الحشي والتصويب من «حسن المحاضرة ٢/٢٠٥». ولقبه الملك الأفضل ولم يلقب وزير بذلك قبله.

(٣) ٣: فاطر.

(٤) ٩١: المؤمنون.

رجعنا إلى ما جرى بين المجوسي والقدري

فإن هذا الكلام جرى في عرض ما أوردناه لأنه يشاكلة، فاستوفينا المقصود فيه، قال القدري للمجوسي: ما لك لا تسلم؟ فقال المجوسي: حتى يريد الله، فقال القدري: قد أراد الله ولكن إبليس اللعين لا يدعك، فما أحسن جواب المجوسي للقدري قال: إن كان الله يريد إسلامي ولم يرده إبليس فكان الذي أراده إبليس دون ما أراده الله، فأنا مع أقواهما. فبهت القدري^(١) وهذا دليل التامع في إقامة الدليل على توحيد الله تعالى، لأن العلماء فرضوا هذه المسألة على من يقول: إن للعالم إلهين، بأن قالوا: لو كان للعالم إلهان، لكان أحدهما إذا أراد حياة جسم ما، وأراد الآخر إمامته فإن تم مراد أحدهما دون الآخر فهو الإله حقاً لنفوذ إرادته ومشيئته، والآخر ليس بآله لقصور مشيئته وعجزه، ومحال أن يتم مرادهما جميعاً لاستحالة الجمع بين الضدين، فلا يكون الجسم حياً ميتاً في حال واحد أبداً، فلا بد أن ينفذ مراد أحدهما دون الآخر، فالذي تم مراده وغلبت مشيئته هو الإله، فاعلم ذلك وكرره فهو عند العلماء النظار دليل التوحيد، وهو دليل التامع وهو مضمون قوله تعالى فيما أرشدنا إليه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(٢).

وقال آخر:

مساكين القدرية، أرادوا أن يصفوا الرب سبحانه بالعدل، وسموا نفوسهم العدلية فوصفوه بالعجز، وذلك أن قول القدرية وإعتقادهم أن الله سبحانه أراد من خلقه أجمعين الإيمان والطاعة، وأن إبليس أراد منهم الكفر والعصيان. وإذا تأملت مرادات إبليس في الدنيا وجدتها أكثر من مرادات الله سبحانه فإذا كان الله تعالى قد

(١) روى نحو ذلك العبدري في كتابه الدليل القويم على الصراط المستقيم ص ٦٢: اجتمع معتزلي ومجوسي في سفينة فقال المعتزلي للمجوسي: لماذا لا تسلم؟ فقال المجوسي: الله ما شاء لي، فقال المعتزلي: إن الله شاء لك ولكن الشيطان منعك. فقال المجوسي: إذا أنا مع الغالب.

(٢) ٢٢: الأنبياء.

أراد من الكفار والعصاة الايمان والطاعة فما كانت، وأراد منهم إبليس العصيان والكفر فكان ما أَرَادَهُ، فقد نفذت مشيئة إبليس وإرادته ولم تنفذ مشيئة الله وإرادته، فقول الناس إذن كافة: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن» باطل، والصحيح على قلوبهم، وسوء اعتقادهم أن يقول القائل: «ما شاء إبليس كان وما شاء الله لم يكن». ونستغفر الله من تسطير هذه الكلمات، ولكن حاكمي الكفر ليس بكافر، والله الحمد على نعمة الاسلام والسنة.

فمن ردّ ولاية الرب سبحانه إلى صورة لو ردت إلى زعيم بلدة لاستنكف أن تنسب إليه، وذلك أن زعيم بلدة إذا علم أن معه في بلده معانداً له إذا أراد أمراً أراد المعاند نقيضه ثم يتم مراد المعاند دون مراد الزعيم وهو يعلم معاندة معانده، ولا ينكر عليه، ولا يمنع من عناده، ولا ينفيه من بلده، ولا يقتله فهو عاجز عنه. والله يتعالى أن يوصف بالعجز أو الجور ولو كان كذلك لخرج عن الالهية، وانعزل عن الربوبية، ولم يكن إلهاً مطاعاً، وهذا هو دليل التوحيد الذي قدمنا ذكره فافهم.

والقدرية إنما ضلّت في هذه المسألة من حيث قاست عدل الله تعالى على عدل عباده، فإن عباده مأمورون ومنهيون ومملوكون ومربوبون، وليس لهم ملك يتصرفون فيه إلا بإذن مالِكهم، فما سوَّغَهُ لهم ساغ لهم التصرف فيه، وما لم يأذن لهم بالتصرف فيه ولو كان ملكهم لم يسغ لهم ذلك، وقد شرع لهم جلّ وعلا أن من تصرف في ملكي بغير إذني أو ملكي أحلّ من خلقي بغير إذنه، فقد ظلم ﴿وَمَنْ بَعَدَ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(١) ومن تصرف في ملك الله بغير إذنه فقد ظلم وتعدي، ولو كان تصرفه في عبده من عبده بغير ما أذن له مالِكه على الحقيقة، فإنه سبحانه قد أذن له أن يتصرف في عبده تصرفاً خاصاً لا عاماً، فلا يجوز له أن يقطع يده، ولا يفقأ عينه، ولا يجيعه، ولا يضربه، ولا ينكحه، فمتى فعل شيئاً من هذا وأشباهه فقد تعدى وظلم وجار وعصى وخالف، واستوجب العقوبة على ذلك من

(١) ٢٢٩: البقرة.

المالك الحقيقي المشرع الذي أرسل إليه وإلى سائر خلقه الرسل ، وحدّ لهم الحدود وأمر ونهى ووعد واعد .

بل إذا قتل الانسان نفسه أدخله النار، وقال له: لم تعديت على ملكي، وتصرفت فيه بغير إذني؟ فلادخلنك ناري ولاوجبنّ عليك سخطي .

والقدريّة يذهلون عن هذه الأمور الالهية والحكمة الربانية ، وقيسون عدل الخالق على عدل المخلوق ، فما كان منهم قبيحاً عندهم فمثله عندهم من الله قبيح ، وهو سبحانه ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾^(١) ولا يقاس عدله بعدل العباد كما قال أبو حامد الغزالي ، إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه في ملك غيره ، ولا يتصور الظلم من الله سبحانه ، فإنه لا يصادف لغيره ملكاً حتى يكون تصرفه فيه ظلماً ، فكل ما سواه من جن وإنس ومَلِكٍ وشيطانٍ وسماءٍ وأرضٍ وحيوانٍ ونباتٍ وجوهرٍ وعرضٍ ومُذْرَكٍ ومحسوسٍ حادثٍ اخترعه بقدرته بعد أن لم يكن . فإذا تصرف في ملكه كيف يقال له ظلمت ، ولو أنه سبحانه حيث خلق أبانا آدم عليه السلام من قطعة من الطين أعاده إلى النار، فمن ذا الذي يقول أنه ظلمه وهو مالكة وموجده ومحدثه ، جلّ ربنا وتقدّس عما يضيفه إليه الملحدون وتعالى علواً كبيراً .

واعلم رحمك الله ويسرّ لك فهم كتابه العزيز، وسره في قدره وحكمه في خلقه وتصاريفه في تدبيره ، إنك إذا تأملت آيتين من الكتاب العزيز فكفتاك إحداهما :

قوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾^(٢).

والأخرى قوله تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾^(٣).

(١) ٢٣ : الانبياء .

(٢) ١٤ : التوبة .

(٣) ١٧ : الأنفال .

فافهم فإن الله تعالى هو الفاعل الحقيقي، ولا فاعل سواه، ولا خالق إلا هو، قال الله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١)، أي خلقكم وعملكم.

وافهم أنه جلّ وعزّ الفاعل على الحقيقة، وغيره فاعل على المجاز، وأنه يتصرف في نسبة أفعال خلقه التي خلقها، تارة ينسبها إلى من اكتسبها وظهرت للناظرين منهم فيقول سبحانه ﴿جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢) ويقول: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾^(٣) ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾^(٤) وشبه ذلك كثير.

وتارة ينسبها إلى نفسه لأنه خالقها فيقول سبحانه

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾^(٥) ﴿فَقَاتِلْهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾^(٦) ﴿تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ﴾^(٧) ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾^(٨).
ويقول: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾^(٩).

جاء في التفسير فإذا قرأه جبريل فاتبع قراءته^(١٠).

(١) ٩٦: الصافات.

(٢) ١٧: السجدة.

(٣) ١٢: الانقطار.

(٥) ٤٥: العنكبوت.

(٦) ١٧: الأنفال.

(٧) ١٤: القصص.

(٨) ٣: القصص.

(٩) ١٨: القيامة.

(١٠) القرطبي ١٩/ ١٠٦: كان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليها السلام إستمع، وإذا انطلق جبريل عليه السلام قرأ النبي ﷺ كما أقرأه؛ خرجه البخاري أيضاً.

وكذلك قوله ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾^(١) والأمة وجميع الأمم مجتمعون على أن الذي ينفخ في الصور هو إسماعيل عليه السلام. فإذا تمدح جل وعز نسب فعلك إليه ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾^(٢) وإذا أراد مديحك أو شكره أو تبيكتك أو ذمك قال: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٣) و﴿الَّتَتَّبِعُونَ الْعَبِيدُونَ﴾^(٤) وكذلك أمرنا إذا دعونا أن ندعوه بأسمائه الحسنى ، فقال : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(٥).

فنقول: يا هادي الخلق اغفر لي ، ولا نقول: يا مفضل الخلق ، ويا كاشف الضر ، ولا نقول ، يا هازم المؤمنين يوم حنين ، ولا : يا قاتل المؤمنين يوم أحد. وهكذا تأدب معه أنبيأؤه عليهم السلام فقال إبراهيم عليه السلام ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾^(٦) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ^(٧) ، ثم قال ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾^(٨).

وقال تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾^(٩) . ولم يقل: بيدك الخير والشر.

وحكي عن بعض العارفين ، أنه بينما هو يناجي ربه ويقول في مناجاته: يا رب أنت شئت وقضيت ، وحكمت وكتبت ، فنودي هذا أدب التوحيد فأين أدب العبيد

(١) ١٠٢ : طه ، ٨٧ : النمل ، ١٨ : النبأ .

(٢) ١٧ : الأنفال .

(٣) ١٧ : السجدة .

(٤) ١١٢ : التوبة .

(٥) ١٨٠ : الأعراف .

(٦) ٧٨ ، ٧٩ : الشعراء .

(٧) ٨٠ : الشعراء .

(٨) ٢٦ : آل عمران .

فقال العارف: وأنا عصيت، وأنا اجتترأت، وأنا خالفت، فسمع هاتفاً يقول: وأنا سترت وأنا صفحت وأنا غفرت. فافهم هذا السرفانه لا يعقله إلا العالمون.

أعني هذا وما قدّمته من أنه يتصرف في أفعال خلقه كيف يشاء ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾^(١).

فإن قيل: إنه لا يليق بأهليته وعدله وجوده أن يعذب خلقه لأجل ما فعله فيهم من الاضلال والكفر والعصيان وقد قال:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفَهَا﴾^(٢).

فالجواب أن تقول: من ههنا غلطتم وظننتم أن الله يعذب خلقه بكفرهم ومعاصيهم. ونحن نقول أنه لا يعاقب ولا يعذب إلا بحق الملك، وجعل الكفر والعصيان علامة على الكافر والعاصي، ولتصح المعاملة بين المؤمنين والكافرين، فيوالي أولياءه، ويعادي أعداءه، ويجاهد الكفار، ويعزّ المؤمنين، كما وصف أصحاب نبيه عليه السلام فقال تعالى

﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٣) ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^(٤).

وتصح المناكحة والمواريثة والعيادة والمواداة وسائر معاملات الشرع، فاعلم ذلك.

والدليل على أن الله سبحانه لا يعذبهم إلا لكونه عبيده وملكه، قول عيسى عليه السلام فيما حكاه الله عنه إذ يقول ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾^(٥) ولم يقل: عصوك، وانظر

(١) ٢٣: التوبة.

(٢) ٤٠: النساء.

(٣) ٥٤: المائدة.

(٤) ٢٩: الفتح.

(٥) ١١٨: المائدة.

إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(١).

نستفد منه أنه سبحانه لولا أن له أن يعذبهم قبل مجيء الرسل الحق الملك لما تمدح بقوله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(١) وفي ضمن الآية ما في ضمن قوله تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾^(٢) وهو سبحانه يعلم قبل أن يبلوهم فتدبره. ومن تصرف في ملكه لا يقال نه ظالم لأن الظلم هو التصرف في ملك الغير بغير إذنه، والظلم أيضاً أن يتعدى المكلف ما حد له ماله.

فإن كان مع الله شريك وله ملك دون الله فيتصرف الله سبحانه في ملك شريكه بغير إذنه فهو ظالم، وإن كان الله سبحانه مالك الأعيان ومالك الكونين وبيده ملكوت كل شيء، وملكوت السموات والأرض ولا شريك معه في ملكه، ولا يتصور الظلم منه تعالى أبداً، فإنه تعالى لا يصادف لغيره ملكاً حتى يكون تصرفه فيه ظلماً، ولا فوقه رب يحده له حدوداً حتى إذا خالف حداً من حدوده كان ظالماً كما قال: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٣) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً بل هو سبحانه يعذب من يشاء من خلقه بما شاء من عذابه.

قال الله تعالى في محكم كتابه قال: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾^(٤) ولم يقل من عصي، فإياك ثم إياك أن تقيس الرب بالعبد، والخالق بالخلق، فتزل عن صراط ربك المستقيم وتقع في طريق الشيطان الرجيم الذي قاس بعقله قياساً واحداً فزل عن طريق الله فهلك مع الهالكين، ونسب هذا الطريق إليه فسمي طريق الشيطان الرجيم، وذلك أنه فكر في نفسه وقال النار أشرف من الطين، لأن النار

(١) ١٥: الاسراء.

(٢) ٣١: محمد.

(٣) ٢٢٩: البقرة.

(٤) ١٥٦: الاعراف.

نورانية والطين من الظلمة فإننا خير من آدم لأن النار خير من الطين.

ولو علم أن الخير من كان عند الله خيراً، لأطاع ربه كما أطاعت الملائكة أجمعون، ولكن جعله الله لأهل الشقاء سبباً، فاحتج بهذا الاحتجاج وارتكب هذا اللجاج فهلك هلاك الأبد بسوء نظره وفساد قياسه، ولو شاء سبحانه لعصمه وزين في قلبه الطاعة كما زينها للملائكة، أو تاب عليه وعفا عنه كما عفا، وتاب على آدم نبيه، ولكن قد أعلمتك أنه يتصرف في ملكه كيف يشاء.

وهذا معنى وصفه بأنه مكر ومستدرج ومخادع.

قال أبو طالب المكي رحمه الله عليه في كتابه المسمى « قوت القلوب » : يعفر لمن يشاء الذنب العظيم، ويعذب من يشاء على الذنب الحقير لبلايا من ملك بعمله ولا ييأس مسرف على نفسه من عفوه وبهذا يتحقق المكر في حقه.

وقال أيضاً: أوحى الله تعالى إلى نبي، أو قال لنبي: قل لفلان كم ذنب واجهتني به غفرته لك، أهلك في دونه أمة من الأمم.

وقال: إن لله عبيدين إشتراكاً في المخالفة آدم وإبليس، هذا لا تأكل فأكل، وهذا اسجد فما سجد فتاب على آدم واجتبه، ولعن إبليس وجزاه.

قال: ويشارك في المعصية الواحدة في المكان الواحد جماعة فيغفر لبعضهم، ويعذب في الدنيا بعضهم، ويتوب على بعضهم، ويؤخر لعقوبة الآخرة بعضهم، ويبدل بعد التوبة لبعضهم سيئاتهم حسنات.

لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. لا يقال لما فعلت هذا، ولا كيف فعلت وكل من سواه يسأل لم فعل ولم ترك، لأن الأمر المكلف يسئله ولا مالك مع الله، ولا دون الله، ولا فوق الله فيسئله عن أمره أو حدوده، والتصرف في ملكه بغير إذنه، فلا يتصور الظلم من الله أبداً. فاعلم.

قال أبو طالب: ولقد عدت لأخوة يوسف الصديق عليهم السلام وفي قوله

تعالى حكاية عنهم ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَحُلُ لَكُمْ وَجَهُ أَبِيكُمْ﴾^(١).
إلى آخر القصة.

نيفاً وأربعين ذنباً صفح عنها، وغفرها لهم ولم يحتمل لابلوس ذنباً واحداً. وقد قيل: إنه عبد الله ثمانين ألف سنة، ولم يبق في السموات السبع موضع شبر إلا سجد لله فيه، فأحبط الله جميع حسناته وقرباته، وسائر أعماله في طول مدته وأخذ به ذنب واحد.

ولم يحتمل لبلعمر بن باعوراء^(٢) ذنباً واحداً فسلبه بالإيمان والتوحيد. وحديثه مشهور وفي الكتب المذكور ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٣).
وفكر بعضهم في قوله تعالى ﴿وَمَكْرُوا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾^(٤).
فلقي سمنون فسأله عنها، فتأوه وأنشأ يقول:

ويقبح سواك الفعل عندي فتفعله فيحسن منك ذاكا

فقال السائل: يا سمنون سألتك عن آية في كتاب الله، فأجبتني بيت من الشعر، فقال له سمنون: أنشدته لتعلم أن في أقل قليل أدل دليل، ثم قال له: يا هذا إمهاله لهم مع مكره مكر بهم، قلت: صدق سمنون، ألا تراه قد قال في موضع آخر، ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ • فَإَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٥) وفيما هدد الله به الثقلين قوله تعالى ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّهَ الثَّقَلَانِ﴾^(٦).

(١) ٩: يوسف.

(٢) يقال أنه من ولد لوط، وقصته في كتب التاريخ، انظر الكامل في التاريخ ١/ ٢٠٠ - ٢٠٢.

(٣) ٩٩: الأعراف.

(٤) ٥٤: آل عمران.

(٥) ٥١، ٥٠: النمل.

(٦) ٣١: الرحمن.

سأل بعضهم عن مخرج هذا الكلام في حق الله تعالى، وقال: هل الله تعالى في شغل حتى يفرغ منه؟ فقليل له: إنما هذا على معنى الامهال لا على معنى الاشتغال. فإنه سبحانه كل يوم هو في شأن ولا يشغله شأن عن شأن، ومخرج هذا الخطاب الوعيد والتهديد، أي سنعمد إلى مجازاتكم بعد أن أمهلناكم وأملينا لكم.

فمن قاس فعل الرب الأمر المالك على فعل المربوب المأمور المملوك، كان كمن قاس ذات الرب على ذات العبد، فجعل إلهه شبهه، ومثله جسماً مصوراً محدوداً مقدراً وجوهرراً متحيزاً، وكما لا يجوز قياس الذات على الذات، فكذلك لا تقاس الصفات على الصفات، فإنه سبحانه يتعالى عن مشابهة خلقه من كل الجهات، ولولا ما سبق به الكتاب على السنة أنبيائه عليهم السلام، من تنعيم المؤمنين وتعذيب الكافرين، لجاز له بحق الملك أن يدخل الكل منهم الجنة أو يدخلهم أجمعين النار، ولا يكون سبحانه ظالماً ولا من الحكمة خارجاً.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(١).

وقال حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢).

قال الفقيه أبو حفص عمر الذهبي رحمه الله عليه: ظفرت البارحة بآية من كتاب الله تعالى هي أحب إلي من مائة ألف، قلت: ما هي؟ قال: القدرية والمعتزلة والامامية يقولون ان الله تعالى يعذب خلقه بذنوبهم، ولا يجوز في حكمته أن يغفر لهم، ومتى غفر لهم فليس بحكيم، فأكذبهم الله تعالى في هذه الآية كما ترى: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

فتبينها وتدبرها تعرف مقدارها ومقدار المبتهج بها، وهو الفقيه أبو حفص رحمه الله عليه.

(١) ١٥: الاسراء.

(٢) ١١٨: المائدة.

وقد ورد في القرآن العظيم قوله تعالى ﴿وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾^(١) أي نعيم الصالح والطالح ، فلولا أنه يتصرف في ملكه كيف شاء لما حسن منه ذلك . .

فاعلم ، ولا تقيس الخالق على المخلوق ولا المالك على المملوك والسّر في هذا . والله أعلم أن تسمية الرب سبحانه تتلقى من جهة الشرع لا من جهة العقل ، فما سمي به نفسه ، سماه به خلقه . فنسميه ماكراً وجباراً ومتكبراً وناسياً^(٢) ومخادعاً ومزيفاً ومستدرجاً لورود الشرع بها ، وهي صفات ذم في حق أنفسنا إذ قلنا فلان جبار متكبر ماكراً مخادع وناس ومستدرج ، ولا نسمي الاله سبحانه عاقلاً فقيهاً أديباً شاعراً لبيباً ذكياً فطناً لعدم ورودها شرعاً وإن كانت في حقنا صفات مدح وكمال ، فلا تقاس الملائك بالحدادين كما قال أبو حامد الغزالي رحمة الله عليه ، ولا الاله الخالق بالمخلوقين جل الله وتعالى عن التشبيه والتمثيل . فإن قيل : أنتم تقولون ان الرب يأمر عباده بأمر ، وهو يريد منهم خلافه ، أمر إبليس بالسجود ولم يرد سجوده ، وأمر فرعون بالإيمان وهو يريد أن يموت على كفره ، وكذلك سائر الكفار والعصاة أجمعين وهذا لا يتصور من العاقل ، كيف يجوز للحكيم أن يأمر عبده بأمر وهو لا يريد امتثاله ؟ ومن فعل ذلك عد سفيهاً خارجاً عن الحكمة ، والعاقل منا لو فعل ذلك لعد سفيهاً خارجاً من حزب العقلاء ، وهذا لا يتصور من عاقل ولا حكيم أن يفعله ، وأنتم تقولون : يا معشر السنة إن كل من مات على الكفر والعصيان وقد أرسل إليه رسولاً ، وأمره بالإيمان والطاعة ، إنه لم يرد إيمانه ولا طاعته فكيف يتصور هذا ؟ فأيقوا لأنفسكم من هذا القول الذي لا يتصور لعاقل .

(١) ٢٥ : الأنفال .

(٢) لسان العرب ١٥ / ٣٢٢ مادة (ن س أ) وقوله عز وجل : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ ، قال ثعلب : لا ينسى الله عز وجل ، إنما معناه تركوا الله فتركهم ، فلما كان النسيان ضرباً من الترك وضعه موضعه ، وفي التهذيب : أي تركوا أمر الله فتركهم من رحمته ، وقوله تعالى : ﴿ فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴾ أي تركتها فكذلك تترك في النار .

قلنا : قد ثبت بالدليل القاطع والبرهان الساطع أن الله تعالى يتصرف في ملكه كيف يشاء ، ولا يتصور منه ظلم أبداً ، لأنه إنما يتصرف في ملكه لا في ملك لغيره . فلا يلزمنا إعتراضكم . وقد مهدنا هذه القاعدة وإنما يبقى استبعادكم أن يقع الأمر من الحكيم لخلقه ، وهو لا يريد امتثال أمره ونحن نقطع استبعادكم بصورة نفرضها يشهد العقلاء أنها حسنة ، وأن الأمر حكيم فيما أمر به ، وفيما أرادته مخالفاً لأمره .

فنتقول : لو أنعم السلطان على بعض خواصه بمملوك وهبه له وأكرمه ، بأن يكون خادماً له تشريعاً له ، فأهانته وضربه وطرده ، فدخل الخادم على السلطان باكياً شاكياً ، فقال : أنعمت بي على من يجهل قدرتي ، ولا يعرف مقدار نعمتك عليه ، فأهانني وضربني وطردني ، وفي إهانتي إهانتك أيها الملك ، فغضب السلطان لذلك ، وقال : علي بفلان ، فأحضر بين يديه ، فعتب عليه ، وقال : أكرمتك بمملوكي يخدمك فأهنته وضربته وطردته؟

قال : أيها الملك عذري فيما فعلت واضح فقال : أوضح عذرك وإلا انتقم منك ، فقال : ما أمرته قط بأمر فامثله فأغضبني فطردته . فقال الملك : إستحق العقوبة والنكال ، ولكن قد صرت له خصماً ، فلا أقبلك عليه إلا بدليل أو شهادة . فقال : أيها الملك ! أحضره إلي بين يديك ، وأنا أمره بأمر ، فإن امثله فقد كذبت في قولي ، واستحققت النكال والعقوبة ، وإن لم يمثّل أمري فقد صح عند الملك عذري ، والمملك مخير بعد ذلك . فعند ذلك أرسل الملك من أحضر الغلام ، وأمره سيده بأمر ، فيا أيها السامعون العقلاء المنصفون ! تدبروا هذه القضية وقولوا ما عندكم فيها ، هل السيد يريد امتثال أمره أم لا يريد امتثال أمره؟ فإن كان يريد امتثال أمره ، فقد عرّض نفسه للهلاك ، وإن كان قد أمره وهو لا يريد امتثال أمره بما لا يريد وهو عاقل حكيم ، وقد أمر أمراً جزمياً ، وهو لا يريد وقوع الأمور به ، ولا يعد عند سائر العقلاء سفيهاً ، ولا خارجاً عن الحكمة ، بل لو أراد وقوع الأمور به لعدّ سفيهاً مجنوناً ، فإذا كان هذا في مخلوق ، والحسّ شاهده والعقلاء تستحسنه ، ولا تستبعده ، فمن استبعد أن يقع نظيره من المالك الحقيقي الذي لا مالك فوقه يأمره ويزجره ولا حكيم مثله ، فما أجهله بحقائق الأمور ، ما أجهله وقد قيل : رمّني بدائها وانسلّت .

فإن قالوا : فقد أفسدتم مذهب القائلين بأن الادارة نفس الأمر وعينتم أن الحكيم يصح منه أن يأمر بما لا يريد، وصورتها الصورة المذكورة في العبد مع سيده إذا أمره وهو لا يريد امتثال أمره، ويتبين منها وجود الأمر مع عدم الإرادة وهذا هو حقيقة الغير من أن يوجد أحدهما مع عدم الآخر، فإذا ثبت هذا. وقلتم: ان الله تعالى أمر الكفار أن يؤمنوا ولم يرد إيمانهم، فما كان منهم إيمان ولا وجد. وقلتم: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فقد وقع كفرهم ووجد فإذا قد أراده الله، فكيف يصبح من الحكيم العدل أن يريد أمراً فإذا كان ما أراد عاقب المكتسب له عليه؛ وهذا ما لا يصح وجوده من الحكيم، ولا يتصور البتة، ولو فعله لخرج عن الحكمة، وصار سفيهاً جائراً، وليست هذه صفة العاقل منا، فكيف الاله الحكيم العدل؟

وكذلك إذا أراد العاقل منا من عبده أمراً، ففعله العبد فعاقبه السيد على وجود مراده كان ظالماً، معرضاً للوم كافة العقلاء.

قلنا: هذا ذهول منكم وغفلة، عما أوردناه. ونورد من ذلك أنا قدمنا أن الله سبحانه لا يقاس عدله بعدل العباد، إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه في ملك غيره، ولا يتصور الظلم من الله تعالى، فإنه لا يصادف لغيره ملكاً حتى يكون تصرفه فيه ظلماً. ومن ذلك أيضاً، أنه قد ثبت أن الارادة غير الأمر، ونحن لا نقول أن الله تعالى أمر الكفار بالكفر، وعاقبهم على ما أمرهم به بل نقول: أن الله تعالى يأمر بالعدل والاحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر^(١)، فلم يبق إلا استبعادكم من كون الحكيم يعاقب على ما أراد. وقلتم: أنه لا يتصور ولا يفعله الحكيم أبداً، قلنا: نحن نفرض صورتين ذكرهما علماؤنا رضي الله عنهم في جواز وقوع العقوبة من الحكيم العدل على ما أراده، ولا يعد سفيهاً ولا خارجاً عن الحكمة ولا يلومه العقلاء على العقوبة.

أما الصورة الأولى: فإن يكون للعاقل منا عبيد، وفيهم عبد يخالف لسيده، وسالكاً للطرائق الذميمة، وهو يمقته ويبغضه ويتمنى أن لو أراحه الله منه، بموت أو

(١) لقوله تعالى ﴿إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى﴾ ٩٠: النحل.

بمن يقتله. وعلم الناس ذلك فيه فقتل ذلك الغلام بعض مماليكه، فبلغه قتله ففرح به وسراً، ثم وجد قاتله، فأنكر عليه قتله للغلام، وقال له: كيف تقتل غلامي بغير إذني؟ فقال: سيدي! والله ما قتلته إلا لأريحك منه، لأنك تمقتة وعلمت مرادك فيه فأرحت الدنيا منه، وأرحتك من سوء فعله، فأمر بقتله وهذه عقوبة قد وجدت من عاقل حكيم عادل، وهي عقوبة على ما أراحه وتمناه. ومع ذلك لم يخرج من حزب العقلاء، ولا عن الحكمة، ولا يلومه أحد، بل لو تركه لعرض نفسه لخطر المطالبة من إلهه ومالكه على ترك القصاص، فإنه الذي أمر بقتل النفس بالنفس، فكيف بمالك لا أمر فوقه يأمره، ويزجره ويحد له حدوداً، وهو يتصرف في ملكه تصرفاً كلياً، ولا يخاف مطالبة ولا عقوبة ولا لوماً ولا حجراً، وهو ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾^(١).

والصورة الثانية: في ملكين يملكان الدنيا كل منهما في مملكته فخرج أحدهما على الآخر وجهاز العساكر والجيش إلى بلاد الملك الآخر، فدهمه بغتة ووصل إلى أطراف بلاده، والملك غافل عنه. فلما صبح عنده خبره نهض إليه، ولم تكن عساكره وجيوشه مجتمعة، وخاف أن يصل إليه، فتوجه مع من حضره من جنده فشاهد جيشاً عرمرماً وعساكر عظيمة هائلة لا يطيق ملاقاته، فلاطفه ولاينه بكل كلام رقيق، وهاداه وجامله حتى استحي منه، ورجع عن بلاده وقد هادنه سنة لا يؤذيه، ولا يغير على بلاده، فلما انصرف عنه عائداً إلى بلاده ومملكته، رجعت عساكر الملك التي كانت غائبة وهرعت إليه من كل فج عميق، فرأى ما أعجبه، فتمنى أن لو نقض الهدنة بأمر يحدث ليجد السبيل إلى نقض العهد، وفسخ الهدنة التي بينه وبينه. فاتفق أن غلاماً لهذا الملك خالف عليه ونافق، وخرج عليه ثائراً، فسمع به ذلك الملك الآخر فجهز إليه جيشاً يتنصح بقتله إلى الملك فلقية الجيش، فقتل الغلام فوصل الخبر إلى الملك بقتل غلامه الثائر عليه فحمد الله وأثنى عليه ثم جيش ذلك الجيش العظيم إلى الملك، وتقدمت رسائله إليه تقول له: فسخت ما بيني وبينك بقتل غلامي، فبعث إليه ما قتلته إلا في طاعتك، فقال له: يا هذا! ما أمرتك بقتله، ولا بد من لقائك واستبيح بلادك وقتلك. فلم يشعر ذلك الملك حتى وطئ بلاده،

(١) ٢٣: الأنبياء.

وقتلته ومملك بلاده، ووجد السبيل إلى ذلك كله بقتل الغلام الذي كان يتمنى قتله، فبلغ منه، ونال ما تمناه، ومع ذلك حسن عند العقلاء النهوض إليه، وقتله ولم يلم عليه، ولا ذم في فعله بل أته الوفود من الخلائق يهنونه بالظفر بذلك الملك وببلاده، ولم يخرج عن الحكمة، ولا عُدَّ سفيهاً في فعله. ولتعرض فعله الآن على عقلك، وعلى عقل جميع العقلاء. فافهم هذه الأمثلة، تتصور عندك كيفية إجراء أقدار الله في خلقه، وينقطع عنك شغب الخالين عن العلم، فليس من جهل كمن علم، وقال الله تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١) وقال الله تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٣).

بل ما خلق الله السموات والأرضين وما بينهما إلا لأجل العلم كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٤) لا على رأي القدرية الذين يقولون: إن الله تعالى إنما هو قادر على أفعاله دون أفعال خلقه، سددك الله وأرشدك.

(١) ٩: الزمر.

(٢) ١١٤: طه.

(٣) ٢٨: فاطر.

(٤) ١٢: الطلاق.

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الشيخ الفقيه الامام الأوحد ضياء الدين أبو الحسن شيث بن إبراهيم بن محمد بن حيدره غفر الله له وعفا عنه . ثم أني لما عرضت ما سنع به الخاطر في مسائل القدر وخلق أفعال البشر على الأمير الأجل المكرم الأمين نجم الدين أعلا الله في الفردوس الأعلى درجته ، وأسبغ عليه في الدنيا والآخرة نعمته ، وافق مقصوده ومرغوبه وأشار إلى أن أتبعه بانتزاع الآيات الكتابية الواردة في هذا الفن ، على ترتيب سور القرآن سورة سورة ، فلاح لي من علو همته وتوقد قريحته أنه لا يرضى بالاختصار عن الاختصار دون التوغل في الغايات والتطلع إلى أقصى النهايات لغرض له لم أطلع عليه ، ولم يوم إليه ، فسارعت إلى تلقي أمره بالسمع والطاعة وبذلت في تلبية دعوته جهد الاستطاعة ، وابتدأت بأمر القرآن تيمناً بها ، لأنها المقصود تلاوتها في كل فرض ونفل وفرع وأصل ، وهي بعد :

فاتحة الكتاب

فأقول ومنه العون والتوفيق والالهام والتسديد ، قوله تعالى : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (١) فاعلم أن وجه الدليل على القدرية والمعتزلة والامامية من هذه الآية أن إرادة الانسان كافية في صدور أفعاله منه كانت طاعة أو معصية ، لأن الانسان عندهم خالق لأفعاله فهو غير محتاج في صدورها عنه إلى ربه ، وقد أكذبهم الله تعالى في هذه الآية إذ سألوه الهداية إلى الصراط المستقيم ، فلو كان الأمر إليهم والاختيار بيدهم دون ربهم لما سألوه الهداية ، ولا كرروا السؤال في كل صلاة ، وكذلك

(١) ٦ : الفاتحة .

تضرعهم إليه في دفع المكروه، وهو ما يناقض الهداية حيث قالوا ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وهم اليهود ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ وهم النصارى.

فكما سألوه أن يهديهم، سألوه أن لا يضلهم، وكذلك يدعون فيقولون ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾^(١) فتأمل راشداً هذه النكتة، فهي هادمة لأصولهم هاتكة لأستارهم.

سورة البقرة: من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢) ثم بين سبحانه المانع لهم من الايمان، فقال تعالى ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾^(٣).

فاعتبروا ايها السامعون. وتعجبوا ايها المتفكرون من عقول القدرية فإن الختم^(٤) هو الطبع. فمن أين لهم الايمان، ولو جهدوا.

وقد طبع الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وجعل على أبصارهم غشاوة، فمتى يهتدون أو من يهديهم من بعد الله إذ أضلهم وأصمهم وأعمى أبصارهم، ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾^(٥).

(١) ٨: آل عمران.

(٢) ٦: البقرة.

(٣) ٧: البقرة.

(٤) لسان العرب ١٢ / ١٦٣ مادة (خ ت م) والختم على القلب: أن لا يفهم شيئاً ولا يخرج منه شيء كأنه طبع، وفي التنزيل العزيز: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ هو كقوله: طبع الله على قلوبهم، فلا تعقل ولا تعي شيئاً، قال أبو اسحق: معنى ختم وطبع في اللغة واحد، وهو التغطية على الشيء والاستيثاق من أن لا يدخله شيء.

(٥) ٣٣: غافر.

وفيها قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا

الْفَاسِقِينَ﴾ (١).

وفيها قوله ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكِينَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (٢) أي بقضاء الله، فليت شعري ما يقول القدري في نسبة ذلك كله إلى الله الواحد القهار.

وفيها قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَإِرْنَا مَنَاسِكًا وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٣).

تأمل ما دعا به هذان النبيان الكريمان على الله تعالى حيث تبرأ من الحول والقوة، وسألا ربهما أن يجعلهما مسلمين. والقدرية تزعم: أن كل واحد منهم قادر أن يجعل نفسه مسلماً مؤمناً إن شاء ذلك واختاره، ولا يفتقر في هذا الفعل إلى ربه. وكذلك سألا لذريتهما من بعدهما هذا السؤال وسألا التوبة أيضاً، وعندهم أن العبد إن شاء تاب، وإن شاء لم يتب وكأنهم يكفرون بقوله تعالى ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ (٤).

(١) البقرة: ٢٦.

(٢) البقرة: ١٠٢.

(٣) البقرة: ١٢٧، ١٢٨.

(٤) التوبة: ١١٨.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

وبقوله تعالى: ﴿إِنْ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾^(٢)
﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿فَهَدَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اٰخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۚ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٤).

سورة آل عمران: ليس فيها شيء مما قدمنا عثرت عليه سوى الآية المذكورة في أم القرآن والله أعلم.

سورة النساء: فيما ورد فيها ﴿وَإِنْ تُصِبُّهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبُّهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾^(٥).
فأنكر عليهم قولهم ورد عليهم فقال لنبيه عليه السلام ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾^(٥).

فنفى عن رسول الله ﷺ ما أضافوه إليه من السيئة وقال: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَالِ هَاتُوا الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾^(٥) يعني: القرآن كما قال ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾^(٦) أوردنا هذه الآية لأن

(١) ٢٩: التكوين.

(٢) ٢٩، ٣٠: الانسان.

(٣) ٢١٣: البقرة.

(٤) ٧٨: النساء.

(٥) ٧٨: النساء.

(٦) ٢٣: الزمر.

السنة والقدرية يتجاوزونها كل يدعي أنها حجة له على ما ذهب إليه . ووجه احتجاجهم بها ، أن القدرية يقولون : أنَّ الحسنة ها هنا هي الطاعة ، والسيئة هي المعصية : قالوا : وقد نسب المعصية في قوله ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾^(١) إلى الانسان دون الله تعالى فهذا وجه تعلقهم بها .

ووجه تعلق الآخرين منها ، قوله تعالى ﴿ قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾^(٢) قالوا : فقد أضاف الحسنة والسيئة إلى نفسه دون خلقه . وهذه الآية إنما يتعلق بها الجهال والعوام من الفريقين جميعاً لأنهم بنوا ذلك على أن السيئة هي المعصية وهنا وليست كذلك والله أعلم . والقدرية إن قالوا : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ ﴾^(٣) أي من طاعة ﴿ فَمِنْ اللَّهِ ﴾^(٤) فليس هذا إعتقادهم لأن إعتقادهم الذي بنوا عليه مذهبهم أن الحسنة فعل المحسن والسيئة فعل المسيء .

وأيضاً لو كان لهم فيها حجة لكان يقول : ما أصبت من حسنة وما أصبت من سيئة ، لأنه الفاعل للحسنة والسيئة جميعاً ولا يضافان إليه إلا بفعله لهما ، لا يفعل غيره ، وإنما الحسنة والسيئة في هذه الآية ما ذكره المفسرون للآية^(٥) قالوا : الحسنة ها هنا الخصب ، والسيئة الجدب ، وقيل : الحسنة السلامة والأمن ، والسيئة : الأمراض والخوف ، وقيل : الحسنة الغنى ، والسيئة الفقر ، وقيل : الحسنة النعمة والفتح والغنيمة يوم بدر ، والسيئة : البلية والشدة ، وهي القتل والهزيمة يوم أحد .

قوله : ﴿ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ﴾^(٦) يا محمد أي بسوء تدبيرك وهو قول ابن عباس رضي الله عنه .

(١) : النساء . ٧٩

(٢) : النساء . ٧٨

(٣) : النساء . ٧٩

(٤) : النساء . ٧٩

(٥) كذا في القرطبي ٢٨٢/٥ وفيه زيادة ، وقيل الحسنة : السراء ، والسيئة : الضراء .

(٦) القرطبي ٢٨٢/٥ : هذه أقوال المفسرين وعلماء التأويل - ابن عباس وغيره - في الآية ، وأنها =

وقيل : من عندك ، أي بشؤمك الذي لحقنا بك .

قالوه على جهة التطير ، قال الله تعالى ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ ^(١) أي الشدة والرخاء والظفر والهزيمة من عند الله ، أي بقضاء الله وقدره ، ﴿ قَالَ هَتُّؤَلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ ^(٢) أي ما شأنهم لا يفقهون أن كلاماً من عند الله .

ثم قال : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ ^(٣) أي ما أصابك يا محمد من خصب ورخاء وصحة وسلامة ، فبفضل الله عليك وإحسانه إليك ، وما أصابك من جذب وشدة فبذنب أتيت عوقبت عليه . والخطاب للنبي عليه السلام ، والمراد به أمته .

كقوله : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَعَتْ نِسَاءً ﴾ ^(٤) وقد قيل : الخطاب للانسان ، والمراد به الجنس كما قال : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ ^(٥) ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُ خُسْرٍ ﴾ ^(٦) (أي إن الناس لفي خسر) ألا تراه استثنى منهم فقال : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ^(٧) ، ولا يستثنى إلا من جملة أو جماعة ، وعلى قول من قال : الحسنة الفتح والغنيمة يوم بدر ، والسيئة ما أصابهم يوم أحد .

فكأنهم عوقبوا عند خلاف الرماة ، الذين أمرهم رسول الله ﷺ أن يحموا

■ نزلت في اليهود والمنافقين ، وذلك أنهم لما قدم رسول الله ﷺ المدينة عليهم قالوا : ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا مذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه ، قال ابن عباس : ومعنى ﴿ من عندك ﴾ أي بسوء تدبيرك . وقيل ﴿ من عندك ﴾ بشؤمك ، كما ذكرنا ، أي بشؤمك الذي لحقنا ، قالوه على جهة التطير .

(١) ٧٨ (٣ ، ٢ ، ١) : النساء .

(٢) ٧٩ : النساء .

(٣) ٢ ، ١ : الطلاق .

(٤) ٢ : العصر .

(٥) ٣ : العصر .

ظهره، ولا يبرحوا من مكانهم فأروا الهزيمة على قريش، والمسلمون يغنمون أموالهم فتركوا مصافهم، فنظر خالد بن الوليد وكان مع الكفار يومئذ ظهر رسول الله ﷺ قد انكشف من الرماة، فأخذ سرية من الخيل ودار حتى صار خلف المسلمين، وحمل عليهم، ولم يكن مع رسول الله ﷺ من الرماة أحد إلا صاحب الراية حفظ وصية رسول الله ﷺ فوق حتى استشهد مكانه، وقتل يومئذ من المسلمين سبعون، واستشهد حمزة عم رسول الله ﷺ وقتل من المشركين يوم بدر سبعون، وأسر سبعون فأنزل الله تعالى نظير هذه الآية وهو قوله تعالى ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مِصْبِيَّةً﴾^(١) يعني يوم أحد: ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾^(٢) يعني يوم بدر ﴿قُلْتُمْ أَلَيْسَ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾^(٣).

ولا يجوز أن تكون الحسنة ها هنا الطاعة. والسيئة المعصية كما قالت القدرية، إذ لو كان كما قالوا: لقال: ما أصبت كما قدمنا.

إذ هو عنه الفعل عندهم والكسب عندنا، وإنما تكون الحسنة الطاعة والسيئة المعصية، في نحو قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾^(٤).

وأما في هذه الآية فهي كما تقدم شرحنا له: من الخصب والجذب والرخاء والشدّة، على نحو ما جاء في الآية التي في الأعراف وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾^(٥) أي بالجذب سنة بعد سنة، حبس المطر عنهم فنقص ثمارهم، وغلت أسعارهم، ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾^(٦) أي يتشاءمون بهم. ويقولون: هذا من أجل اتباعنا

(١، ٢، ٣) ١٦٥: آل عمران.

(٤) ١٦٠: الأنعام.

(٦) ١٣١: الأعراف.

(٥) ١٣٠: الأعراف.

لك وطاعتنا اياك على ما كانت العرب عليه من زجر الطير تشاءم بالبارح^(١)، وهو الذي يأتي من جهة الشمال، وتترك بالسانح^(٢) وهو الذي يأتي من جهة اليمين، فرد الله عليهم بقوله تعالى ﴿أَلَا إِنَّمَا طَبَرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٣) يعني أن طائر البركة وطائر الشؤم من الخير والشر والنفع والضر من الله تعالى لا صنع فيه لمخلوق.

فكذلك قوله تعالى فيما أخبر عنهم أنهم يضيفونه إلى النبي ﷺ حيث قال ﴿وَإِنْ نُسَبُّهُمْ سِنَّةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾^(٤).

كما قال ﴿أَلَا إِنَّمَا طَبَرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٥) وكما قال: ﴿وَمَا أَصْبَكُمُ يَوْمَ التَّنَقَّى أَجْمَعِينَ فَيُذِنُ اللَّهُ﴾^(٦) أي بقضاء الله وقدره وعلمه أيضاً، وآيات الكتاب يشهد بعضها لبعض، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يشك أن كل شيء بقضاء الله وقدره وإرادته ومشئته، كما قال تعالى ﴿وَنَبَلُوكُم بِالْأَشْرِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾^(٧).

وقال ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾^(٨) وشر الشرور إبليس اللعين، والله تعالى خلقه وقد سلطه على خلقه وتفضل سبحانه على من شاء من خلقه بالعصمة والهداية والتوفيق والرشاد.

(٢، ١) لسان العرب ٢/ ٤١١ مادة (ب رح) والبارح: ما مر من الطير والوحش من يمينك إلى يسارك، والعرب تنطير به لأنه لا يمكنك أن ترميه حتى تنحرف، والسانح: ما مر بين يديك من جهة يسارك إلى يمينك، والعرب تيمين به لأنه أمكن للرمي والصيد.

(٣، ٥، ١٣١): الأعراف.

(٤) ٧٨: النساء.

(٦) ١٦٦: آل عمران.

(٧) ٣٥: الأنبياء.

(٨) ١١: الرعد.

ولقد ورد في الأخبار أن قدرياً حضر عند ابن عباس رضي الله عنه وهو يتكلم في تفسير القرآن والناس يسألونه، فقال: يا ابن عباس لي مولى هو قادر على هدايتي وعصمتي وتوفيقي وإرشادي، فمنعني الهداية والعصمة والتوفيق والإرشاد، أليس قد ظلمني وأساء إلي؟ فتفطن له ابن عباس، فقال موافقاً لجعفر الصادق رضي الله عنهما في جوابه للقدري الذي قال له تعالى الله أن يخلق الفحشاء. الخبر الذي قدمناه في صدر الكتاب^(١): يا هذا إن منعك مولاك الهداية والعصمة والتوفيق والإرشاد وهي حق وجب لك فقد ظلم وأساء، وإن كانت الهداية والإرشاد والعصمة والتوفيق حقاً له، فإنه يختص برحمته من يشاء. وفيها ﴿أُرِيدُونَ أَن يُهَدُّوا مِنْ أَضَلِّ آلِهَةٍ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾^(٢) ولا أحد يضل نفسه ولا يضل غيره من المخلوقين، وإنما المضل الهادي هو الله وحده، دون جميع خلقه من الانس والجن والملائكة والشياطين وسائر الخلق أجمعين، ومن نسب إليه منهم ضلال فلنما نسب إليه مجازاً لا حقيقة إذ كان هو السبب الظاهر للخلق كما قال تعالى ﴿فَلَمَّا قَدْ فُتِنَ قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾^(٣).

وفيها ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٤).

سورة المائدة: من ذلك قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾^(٥). جاء في التفسير^(٦): إضلاله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ

(١) راجع صفحة ٣١ من هذا الكتاب.

(٢) ٨٨: النساء.

(٣) ٨٥: طه.

(٤) ١١٣: النساء.

(٥) ٤١: المائدة.

(٦) القرطبي ١٨٢/٦: أي ضلالته في الدنيا وعقوبته في الآخرة.

أَنْ يُظَهِّرَ قُلُوبَهُمْ^(١) ﴿ جاء في التفسير^(٢) يظهر قلوبهم : أي بالاسلام لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم .

وفيها ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ^(٣) .

سورة الأنعام : فيها آيات بينات دون السور التي تذكر ، والمذكورات قبل . من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ أُسْطِطِعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ^(٤) ﴿ جاء في التفسير^(٥) : ولو شاء الله لخلقهم مؤمنين ردأ على القدرية . ثم قال ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَهُمُ اللَّهُ^(٦) ﴿ جاء في التفسير^(٧) : إنما يستجيب لدعائك يا محمد الذين فتح الله أسماعهم إلى سماع الحق ، فيقبلون ما يسمعونهم وهم المؤمنون ﴿ والموتى

(١) ٤١ : المائدة .

(٢) القرطبي ١٨٢/٦ : بيان منه عز وجل أنه قضى عليهم بالكفر ، ودلت الآية على أن الضلال بمشيئته تعالى ردأ على من قال خلاف ذلك .

(٣) ٤٨ : المائدة .

(٤) ٣٥ : الأنعام .

(٥) القرطبي ٤١٨/٦ أي لخلقهم مؤمنين وطبعهم عليه ، بين تعالى أن كفرهم بمشيئة الله ردأ على القدرية .

(٦) ٣٦ : الأنعام .

(٧) القرطبي ٤١٨/٦ : أي سماع إصغاء وتفهم وإرادة الحق وهم المؤمنون الذين يقبلون ما يسمعون فينتفعون به ويعملون .

يبعثهم الله ﴿ أي والكفار ^(١) الذين هم في عدد الموتى لأنهم لا يسمعون ولا يعقلون لإعراضهم عن سماع الحق قلت: قال الله: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ ثم قال: ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ^(٢) ﴾ لأنه سبحانه خلقهم كافرين وكتب عليهم أنهم لا يؤمنون.

وقال الحسن ومجاهد في قوله تعالى: ﴿ والموتى يبعثهم الله ﴾ المعنى: أن الكفار مثل الموتى، والله يوفق من يشاء إلى الإيمان بالله ورسوله، فيكون ذلك بعثهم من موتهم.

قلت: وهذا كما قال الله تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ^(٣) ﴾ . شبه الكفر بالموت والإيمان بالحياة، كما شبه الكافر بالظلمات والإيمان بالنور في قوله تعالى: ﴿ لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ^(٤) ﴾ .

وكما قال تعالى: ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ^(٥) ﴾ والخارج منها هو الذي بعثه الله من موته بالكفر إلى حياته بالإيمان ، فافهم ذلك كله فهو بين كما ترى.

وفيها قوله: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمْ وَبُكِّرْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءُ ﴾

(١) القرطبي ٤١٨/٦ : وهم الكفار، عن الحسن ومجاهد، أي هم بمنزلة الموتى في أنهم لا يقبلون ولا يصغون إلى حجة.

(٢) ٢٣ : الأنفال .

(٣) ٢٤ : الأنفال .

(٤) ١ : إبراهيم .

(٥) ١٢٢ : الأنعام .

اللَّهُ يُضِلُّهُ وَمَنْ يُشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ^(١) ﴿ وهذا كما تقدم شرحه في ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ^(٢) ﴾ إلى آخر السورة وكما تقدم في الآية التي قبل هذه من ذكر الظلمات، وذكر من أصمته الله عن سماع الخير. فاعلمه.

وفيهما قوله تعالى ﴿ اتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ^(٣) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ^(٤) وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(٥) ﴿

وفي قوله ﴿ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ^(٤) ﴾ كفاية وبيان.

ثم قال: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعُرُكُمْ أَنُّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٦) وَنَقَلَبْ أَفْعَلَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ^(٥) ﴿

ثم قال: ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ

(١) ٣٩: الأنعام.

(٢) ٦: الفاتحة.

(٣) ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨: الأنعام.

(٤) ١٠٨: الأنعام.

(٥) ١٠٩، ١١٠: الأنعام.

كُلِّ شَيْءٌ قُبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ^(١) ﴿
 ثم قال: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ
 يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ
 فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ ^(٢) 〉﴾ .

وفيهما ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ
 أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ^(٣) 〉﴾ . احتججت على إمامي بهذه
 الآية . فقال : من هو الذي يشرح صدره للإسلام؟ ومن هو الذي يجعل صدره
 ضيقاً حرجاً؟ قلت : هو الله تعالى ، ألا تراه يقول في أول الآية : ﴿ فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ
 فَقَالَ : ليس الأمر كما قلت . فقلت له : فمن الذي يفعل ذلك؟ قال : رأيت الضمير
 الذي في ﴿ يشرح ﴾ وفي ﴿ يجعل ﴾ ، هو يعود على من ، وهو الذي يفعل
 الشرح والضيق ، ولا يعود الضمير على الله كما زعمت . فقلت له : فهب أنك
 أعدت الضمير على « من » دون الله حتى يصح مذهبك ، فما تصنع في قوله تعالى
 ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ ^(٤) 〉﴾ ، ليس ها
 هنا إسم مع الله يمكنك أن تموه به على الغر الجاهل والغافل الذهول ، فبهت ،
 ولم يحرجوا ، ثم قلت له : أجب عما ألزمتك أوتب إلى الله من هذا الاعتقاد
 الفاسد ، فقال : حتى أسئل عنه . ومرت الليالي والأيام ، ووجدته مراراً ولم يجب
 بشيء ، وهذه عادة من ينزه الله في كتابه .

(١) ١٠٩ ، ١١٠ : الأنعام .

(٢) ١١٢ : الأنعام .

(٣) ١٢٥ : الأنعام .

(٤) ٧ : البقرة .

فَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾^(١).

فقد أوردنا له آية لا تتشابه عليه، وليس فيها ضمير ولا ضميران يلتبس أحدهما بالآخر، وتتجاذب المتنازعان طرفيهما، ولا يُشرك الرب في تسمية بالله أحد من خلقه.

كما قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾^(٢).

وفيها ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾^(٣).

ثم لم يقنع جل وعلا بهذا الإقرار منهم حيث جعلوا إشراكهم بالله منوطاً بمشيئة الله سبحانه حتى أقام بذلك الحجة عليهم وعلى القدرية معهم. فقال تعالى عقيب ذلك: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٤).

(١) ٧: آل عمران.

(٢) ٦٥: مريم.

(٣) ١٤٨: الأنعام.

(٤) ١٤٩: الأنعام.

سورة الأعراف: فيها قوله تعالى حكاية عن إبليس: ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١) ﴿فإبليس أحسن إعتقاداً من القدرية، حيث نسب إغواءه إلى بارئه وخالقه دون نفسه، والقدرية تقول: إن ضللت فأنا الذي أضل نفسي، وأنا خالق لفعلي وإغوائي وضلاي. وقد أبا ذلك مقدمهم في الضلال والاضلال إبليس اللعين، ونسب الاغواء إلى من خلقه فيه وزينه له حتى غوى وأغوى وضل وأضل وقد أخبر الله عن اللعين الرجيم بأن ليس له من الأمر شيء، حيث قال تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْإِيمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾^(٢) .

ثم قال: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٣) .

وكما قال تعالى في سورة البقرة ما ذكرناه عن هاروت وماروت إذ قال سبحانه: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ ءَمِّنَ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٤) .

وفيهما قوله تعالى في أهل الجنة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ أَنْهَارٌ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾^(٥) .

(١) ١٦ : الأعراف .

(٢) ٩ : المجادلة .

(٣) ١٠ : المجادلة .

(٤) ١٠٢ : البقرة .

(٥) ٤٣ : الأعراف .

وفيها قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ
يَشْعِيبَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا
كَافِرِينَ ﴿١﴾ قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا
اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ﴿٢﴾﴾.

وقد تقدم ذكرها في صدر الكتاب.

وفي هذه الآية نكتة تهدم أصل المبتدعة والامامية وتحز غلاصم المعتزلة
والقدرية، وهي أنهم يقولون: أن إرادة الله نفس أمره، وأمره نفس إرادته وفرعوا
عليه أنه لا يأمر إلا ما يشاء ويريد ولا يريد من خلقه إلا ما أمرهم به وشاء لهم،
واحتجوا بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ (١) فلا يريدوها، فخرج من ذلك كله أن
الله لم يرد معصية العصاة ولا كفر الكفار، هذه قاعدة مذهبهم، وقد أكذبهم الله
على السنة أنبيائه عامة وعلى لسان شعيب في هذه الآية خاصة، في قوله
تعالى عنهم حيث قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ
لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾
إلى قوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ (٢)
وملئهم الكفر وقد علقه بمشيئته سبحانه كما ترى.

ومنها قوله تعالى ﴿وَاخْتَارُ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَتِنَا فَلَمَّا
أَخَذَهُمُ الرِّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَتُهْلِكُهُمْ بِمَا
فَعَلُوا السَّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ

(١) ٨٨، ٨٩: الأعراف.

(٢) ٢٨: الأعراف.

(٣) ٨٨، ٨٩: الأعراف..

نَسَاءُ أَنْتَ وَلِينَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ^(١) ﴿١﴾

وفيها قوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٧٨) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَأَلٍ لَّنَعْمَ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ^(٢) ﴿٢﴾ وقد تقدمت هذه الآية في صدر الكتاب.

وفيها ﴿مَنْ يُضِلِلْ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(٣) ﴿٣﴾

سورة الأنفال: قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٤) ﴿٤﴾

هذه الآية وإن أحتج بها بعض الأصحاب على خلق أفعال العباد فقد شرحها الفقيه أبو القاسم في كتاب «الاملاء» وقال في آخر كلامه: إنها واردة في معاتبه المسلمين وأعلمهم أنه سبحانه الذي أمدهم بالملائكة فقتل الله المشركين بهم، وأوصلوا رمي النبي بالحصباء إلى أعينهم، فهزمهم الله ورماهم بالملائكة، على نحو قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾^(٥) ﴿٥﴾

(١) ١٥٥: الأعراف.

(٢) ١٧٨، ١٧٩: الأعراف.

(٣) ١٨٦: الأعراف.

(٤) ١٧: الأنفال.

(٥) ١٤: التوبة.

وكما قال الشاعر:

رمى بك الله برجيها فهدمها ولو رمى بك غير الله لم يصب

وفيها ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ^(١)﴾ أمرهم بالاستجابة لله وللرسول وأعلمهم أنه يحول بين المرء وقلبه ، فمتى يستجيب إذن ؟ وفي التنزيل : ﴿ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ^(٢)﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْسًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ^(٣)﴾ . قيل في التوراة : وسأقسي قلبه فلا يؤمن .

سورة التوبة : فيها قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَسْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ^(٤)﴾ .

وفيها يقول في قوم تخلفوا عن رسول الله ﷺ ، فذمهم الله حيث تخلفوا عنه في الغزاة .

وعند القدرية أنهم مستحقون للذم لأنهم قعدوا عن رسول الله ﷺ وعن نصرته ، فما الحيلة في قوم خلق الله فيهم الشيطان والقعود عن رسول الله ﷺ فيجب على قول هذا عند القدرية أن يعذروهم أيضاً لأن الله خلق فيهم القعود وزينه لهم ، حيث قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ^(٥)﴾ ولو حمل الأمر في قوله

٢٤ : الأنفال .

(٢) ٤٣ ، ٤٤ : طه .

(٣) ١٤ : التوبة .

(٤) ٤٦ : التوبة .

﴿ اقعِدُوا ﴾ على ظاهره لكانوا مأمورين بالقعود وكانوا طائعين وممدوحين بامتثال الأمر ، ولكن ليس أمرهم سبحانه بالقعود وإنما خلق فيهم القعود . وكذلك قوله ﴿ كره الله انبعاثهم ﴾ وقوله ﴿ فثبطهم ﴾ . هو الفاعل لذلك كله ، ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ^(١) ﴾ .

والقدرية ما عرفوا الله حق معرفته ولا قدروا الله حق قدره فبعداً لهم وسحقاً فما أجهلهم بصفات الله خالقهم وما أنكرهم لأفعال ربهم ومالكهم . فسبحان الله عما يصفون وجلّ جلاله عما يافكون .

سورة يونس عليه السلام: قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ^(٢) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ^(٣) ﴾ .

وقالت القدرية من أراد أن يؤمن آمن لأن الحول والقوة والاختيار بيده .

وقال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ^(٤) ﴾ ولم يبق بعد هذا للقدرية كلام وهذا حديثه مع سيد الأولين والآخرين لحرصه على إيمانهم ، أخبره جل جلاله ان ما هذا إليك ولا إليهم إنما هو معقود بمشيئة الله تعالى ، ومنوط بإرادته ، كما قال له في موضع آخر : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ ^(٥) ﴾ .

وكما قال له لما عظم عليه إعراضهم عنه : ﴿ وَإِنْ كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ أُسْطِطِعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلُبًا فِي السَّمَاءِ

(١) ٩٦ : الصافات .

(٢) ٩٦ ، ٩٧ : يونس .

(٣) ٩٩ : يونس .

(٤) ٨ : فاطر .

فَتَأْتِيهِمْ بَغَائَةٌ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ^(١).
 وفيها يقول سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ
 الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ^(٢)﴾.

والقدرية ترد على الله قوله هذا، وتقول: ولو أراد أن يؤمن لآمن والخير بيده
 دون بآرئه، فسبحان الله عما يقولون وتعالى علواً كبيراً.

سورة هود عليه السلام: يقول فيها في قصة نوح عليه السلام:

﴿قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَاْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا
 إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ^(٣٢)﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ
 بِمُعْجِزِينَ ^(٣٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ
 يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ^(٣٤)﴾.

وفيها يقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ
 مُخْتَلِفِينَ ^(٣٥)﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ
 جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ^(٣٦)﴾.

تأمل هذه الآية، والتفت إلى قسمه سبحانه ﴿لأملأن جهنم من الجنة
 والناس أجمعين﴾ فليت شعري لو اتفق الناس وتراضوا على أن يؤمنوا كما زعم

(١) ٣٥: الأنعام.

(٢) ١٠٠: يونس.

(٣) ٣٢، ٣٣، ٣٤: هود.

(٤) ١١٨، ١١٩: هود.

القدرية والمعتزلة أن الانسان مالك لاختياره ، فإن شاء آمن وإن شاء كفر وإن شاء أطاع وإن شاء عصى ، فما يفعلون بقسم الله سبحانه ، أكان الله يحث في يمينه عندهم ، أو كان يوصف بالكذب في خبره على مقتضى مذهبهم ، وهو مستحيل في حقه جل ذلك الجلال أن توزن صفاته بميزان أهل القدر والاعتزال أو يضطروا إلى قول أهل الحق ، فيقولون لا بد أن يصدق خبره ، ويبرق سمه ، فيؤمن ويطيع من أراد إيمانه وطاعته ، ويكفر ويعصى من أراد كفره ومعصيته ، فتتم إذن كلمته بالثواب والعقاب ، ويملاً الجنة ممن سبقت له من الله الحسنى وجهنم ممن حقت عليه كلمة العذاب ويضل الله من هو مسرف مرتاب .

سورة يوسف عليه السلام : قوله تعالى : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) .

وقال فيها : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِّنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٣٥) .

فيا لله ويا للعجب ، أيعجز الله تعالى أن يصرف الزنا عن كل من هم به كما صرفه عن يوسف ، أم هو قادر على ذلك فسوءة لهم ما أجهلهم بصفات الله ، أرادوا أن يصفوا ربه بالعدل فوصفوه بالعجز .

وقال في نقيض ذلك : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِّنْ وَّالٍ ﴾ (٣٦) ولما دعاه الملك وأرسل إليه رسولا ليخرجه من السجن ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ

(١) ٣٣ ، ٣٤ : يوسف .

(٣) ١١ : الرعد .

(٢) ٢٤ : يوسف .

أَيَّدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ^(١) ﴿١﴾

جاء في القصة أن جبريل عليه السلام قال له: يا يوسف ما لك لم تحب لما دَعَاكَ الملك لتخرج من السجن؟ قال يوسف عليه السلام: أردت أن أبرأ عند الملك قبل لقائه وهو مضمون، قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ^(٢)﴾. فقال له جبريل عليه السلام: يا يوسف ولا جبر، هممت حتى عصمتك الله، فعندها قال: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي^(٣)﴾. ومثله في القرآن كثير، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ^(٤)﴾.

سورة الرعد: فيها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا تَخْلِيفَهُ فَتَشَبَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ^(٥)﴾.

ثم قال: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ^(٦)﴾. القدرية تزعم في اعتقادها أن الله شركاء من الخلق كثيراً خلقوا كخلقه. بيان ذلك أنهم يعتقدون أن

(١) ٥٠: يوسف.

(٢) ٥٢: يوسف.

(٣) ٥٣: يوسف.

(٤) ١١٨، ١١٩: هود.

(٥) ١٦: الرعد.

(٦) ١٦: القهار.

أفعال العباد خلق لهم أنفردوا بها دون باريء النسم ، وموجد الخلق بعد العدم ،
ويزعمون أن الخالقين كثير ويحتجون بقوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ
الْخَالِقِينَ ﴾^(١) .

ويقولون لولا أن ثم خالقين كثيراً وأن الله أحسنهم خلقاً لما قال فتبارك الله
أحسن الخالقين ، وقد أكذبهم الله تعالى في هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ
شُرَكَاءَ خَلَقُوا تَخْلِيفَهُ ﴾^(٢) . وذلك أن حركة الارتعاش في يد العبد هم موافقون لنا
أنها خلق الله تعالى دون العبد لأنها واقعة بقدرة الله وإرادته ، ولا قدرة للعبد عليها
ولا إرادة ، فإذا أراد العبد أن يحرك يده باختياره وإرادته حركة تشبه الارتعاش
قالوا : هذه خلق للعبد لأنها وقعت بقدرته وإرادته ، فقد ﴿ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا
تَخْلِيفَهُ فَتَشَبَّهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾^(٣) ، فأكذبهم الله تعالى فقال : ﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ
شَيْءٍ ﴾^(٤) ، بمعنى هو المنفرد بخلق جميع الأجسام والأعراض كلها ،
وخالق أفعال خلقه كما قال : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾^(٥) ، ثم قال :
﴿ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾^(٦) . واحد في ذاته ، واحد في صفاته ، واحد في أفعاله ،
قهار لجميع خلقه داخلون تحت قدرته ، ﴿ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾^(٧) ،
ومقهرون في قبضته وتحت سلطانه قهر اقتدار لا إله إلا هو الواحد القهار .

واعلم أن هؤلاء الذين لم يؤتوا إلا من قلة الفهم وعمي البصائر ظنوا أن الخلق
لا يكون إلا بمعنى الاختراع والابجد والابتداع ، تعالى الله أن يكون معه شريك في
ملكه وسلطانه وجبروته ، أو يكون أحد خالقاً لشيء سواه . وإنما الخلق في هذه الآية

(١) : ١٤ : المؤمنون .

(٢) : ١٦ : الرعد .

(٣) : ١٦ : الرعد .

(٤) : ٩٦ : الصافات .

(٥) : ٦٧ : الزمر .

بمعنى التقدير، ولا يكون التقدير إلا في الأجسام، وأول الآية يدل عليه حيث قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا (١٤) والتقدير جارٍ في هذا كله، كما قال هذا المعنى مفسراً في قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ (١٥) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٦) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (١٧).

ثم قال: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ (١٨) على قراءة نافع والكسائي بالتشديد فاعلم (١٩).

ثم قال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (٢٠) أي المقدرين، وليس كل صانع إذا قدر في صناعته تقديراً يقع ذلك على وفق تقديره وإرادته، يتبين لك ذلك من تقدير كل صانع في صناعته، وإنما يأتي على وفق تقدير الله العظيم الخبير وهذا المعنى معروف في اللغة.

قال الشاعر:

ولأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري
وقال آخر:

ولا ثبط بأيدي الخالقين ولا أيدي الخوالق إلا جيد الأدم

(١) ١٢، ١٣، ١٤: المؤمنون.

(٢) ٢٠، ٢١، ٢٢: المرسلات.

(٣) ٢٣: المرسلات.

(٤) القرطبي ٩/ ١٦٠: قرأ نافع والكسائي ﴿فَقَدَرْنَا﴾ بالتشديد، وخفف الباقون، وهما لعتان بمعنى قاله الكسائي والفراء والقُتَيْبِيُّ. قال القُتَيْبِيُّ: قَدَرْنَا بمعنى قَدَرْنَا مشددة.

(٥) ١٤: المؤمنون.

وفي كلام الحجاج بن يوسف على المنبر يهدد أهل العراق حين قدم أميراً عليهم في خطبته المشهورة التي يقول فيها: إني والله ما أقول إلا وفيت ولا أهم إلا أمضيت ولا أخلق إلا فريت أي لا أقدر إلا قطعت.

وفيه يقول الله سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَأْيِسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا^(١)﴾.

وفيه يقول: ﴿بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ^(٢)﴾.

سورة إبراهيم عليه السلام: قوله تعالى: ﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلٰلٍ بَعِيدٍ ۝ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ءَلِيْسَيْنَ هُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝^(٣)﴾.

هذه آيات بينات في الرد على القدرية، من تأملها علم مضمونها. قوله تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، أي من ظلمات الكفر إلى نور

(١) ٣١: الرعد.

(٢) ٣٣: الرعد.

(٣) ١، ٢، ٣، ٤: إبراهيم.

الايمان، وذلك بإذن ربهم، أي بتوفيقه وهدايته. وكما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(١) أي بتوفيق الله، وقيل بقضائه، فلا تعهد نفسك يا محمد في طلب هدايتهم. ثم قال من بعد: ﴿قُلِ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢) أي عن قوم سبق لهم من الله الشقاء، وانظروا إلى قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(٣) أنظر إلى أسباب الهداية كيف مهدها لهم إرسال الرسل، وانزال الكتب، وكونها بلسان المرسل إليهم، وكونه سبحانه قصد بذلك التبيين لهم، ثم بعد ذلك كله أضل من شاء وهدى من شاء.

كما قال تعالى فيما أوردناه متقدماً: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(٤).

وكما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^(٥).

ثم قال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾^(٦) فاعلم. وقوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا

(١) ١٠٠: يونس.

(٢) ١٠١: يونس.

(٣) ٤: إبراهيم.

(٤) ٢٥: يونس.

(٥) ٢٤: الأنفال.

(٦) ٢٤: الأنفال.

إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ؕ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ هَدْيَكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْصٍ ^(١) ﴿١﴾

وقد تقدم القول في هذه الآية: فانظر إلى أهل النار كيف اعترفوا بالحق في صفات الله تعالى وهم في دركات النار.

كما قالوا في موضع آخر: ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ^(٢) ﴾ ﴿٢﴾

وفي موضع آخر: ﴿ كَلَّمَآ أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ^(٣) ﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ؕ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ^(٤) ﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ^(٥) ﴿٣﴾

قال الله تعالى: ﴿ فَأَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فُسْحَقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ^(٦) ﴾ ﴿٤﴾
فاعترفهم في دركات لظى بالحق ليس بنافع ، وإنما ينفع الاعتراف صاحبه في الدنيا.

قال الله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ^(٧) ﴾ ﴿٥﴾

(١) ٢١ : إبراهيم .

(٢) ١٢ : السجدة .

(٣) ٨ ، ٩ ، ١٠ : الملك .

(٤) ١١ : الملك .

(٥) ١٠٢ : التوبة .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾^(١).

ثم قال: ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾^(٢). وصدق إبليس في هذا القول كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾^(٣). فمن عصمه الله من الشيطان لم يجعل له عليهم سلطاناً، ومن خلق الله فيه الغواية تبعه كما قال إلا من اتبعك من الغاوين.

وفيها: ﴿ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾^(٤).

وفيها: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ إِلَّا ضَمَامَ ﴾^(٥).

كما قدمنا قوله في البقرة حيث قال: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾^(٦) الآية.

ثم قال بعد ذلك: ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾^(٧).

(١) ٢٢: إبراهيم.

(٢) ٢٢: إبراهيم.

(٣) ٤٢: الحجر.

(٤) ٢٧: إبراهيم.

(٥) ٣٥: إبراهيم.

(٦) ١٢٨: البقرة.

(٧) ٤٠: إبراهيم.

فانظر إلى هذا النبي المكرم على الله ، وهو خليله دون خلقه ، كيف يتضرع إلى مولاه ، فمرة يقول: ﴿وَأَجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ ومرة يقول: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾^(١) .

ومرة يقول : ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾^(٢) على نحو قوله فيما قدمناه ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾^(٣) .

وفي هذه السورة ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾^(٤) أي يضل من يشاء فلا يوفقه ، ويهدي من يشاء فيوفقه ، وقوله: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾^(٥) أي لا يوفقهم في الحياة الدنيا إلى الايمان . هكذا جاء في تفسير هذه الآية .

سورة الحجر: قوله سبحانه حكاية عن إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٦) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٨﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٩﴾ . قال لأغوينهم كما أغويتني فاعلم .

(١) ١٢٨ : البقرة .

(٢) ٣٥ : إبراهيم .

(٣) ٤٠ : إبراهيم .

(٤) ٧ ، ٦ : الفاتحة .

(٥) ٢٧ : إبراهيم .

(٦) ٢٧ : إبراهيم .

(٧) ٣٩ ، ٣٠ ، ٤٠ ، ٤٢ : الحجر .

سورة النحل: قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ^(١) قال ابن عباس رضي الله عنه: وعلى الله بيان الهدى من الضلال ولو شاء لهداكم إلى الهدى أجمعين ^(٢)، وهو الصراط المستقيم. وفيها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ ﴿٣١﴾ إِنْ تَحْرَصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ^(٣) ﴿٣٢﴾.

أنظر إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ تَحْرَصْ عَلَى هِدَاهُمْ﴾ والنبي ﷺ أفصح من نطق بالضاد وهو سيد الأولين والآخرين وأبلغ الواعظين وصاحب المعجزات والآيات والبراهين، واشتد حرصه على إيمان من لم يؤمن من قومه، وذهبت نفسه عليهم حسرات والله تعالى يقول له: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ وأكدته بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾. كما قال: ﴿وَمَنْ يُضِلُّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ ^(٤) وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَأْيَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءَ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ ^(٥).

وفي هذه السورة ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ

(١) ٩: النحل.

(٢) القرطبي ٨٢/١٠: بين أن المشيئة لله تعالى، وهو يصحح ما ذهب إليه ابن عباس في تأويل الآية، ويرد على القدرية ومن وافقها كما تقدم.

(٣) ٣٦، ٣٧: النحل.

(٤) ١٧: الكهف.

(٥) ٣١: الرعد.

يَسَاءَ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ^(١) ﴿

سورة بني إسرائيل ^(٢) : فيها قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ
وَمَنْ يَضِلَّ فَلَنْ يُجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ﴾ ^(٣) .

وفيه قوله تعالى : ﴿ فَسَجُدُوا لِلَّهِ الْإِلَهِ الْأَبْلَسِ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ
طِينًا ^(٤) ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ^(٥) ﴾ .

كما قال تعالى فيما أوردناه في قصة يوسف عليه السلام : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفَ
عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ^(٦) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ
فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ^(٧) . فلو اجتمع أهل
السموات وأهل الأرض من حملة العرش وجميع المقربين، والملائكة والناس
أجمعين، والأنبياء والرسل عليهم السلام أن يهدوا من أضل الله فلا يستطيعون،
كما أنهم لو اجتمعوا على أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته
ومشيئته لعجزوا عن ذلك، فمنه الخير والشر والنفع والضر ومنه الايمان والكفر
ومنه التوفيق والخذلان، لا إله إلا هو الواحد القهار.

وفيها : ﴿ وَإِنْ كَادُوا ﴾ يعني الكفار ﴿ لَيَفْتِنُنَاكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ
إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ ^(٨) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ

(١) ٩٣ : النحل .

(٢) وتسمى : الاسراء .

(٣) ٩٧ : الاسراء .

(٤) ٦١ : الاسراء .

(٥) ٦٥ : الاسراء .

(٦) ٣٣ ، ٣٤ : يوسف .

كَدَّتْ تَرَكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْعًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ^(١) ﴿٧٥﴾ . - ن تدبر هذه الآيات وتفكر فيها عرف سر القدر إن شاء الله ، فلا أجل من المصطفى ولا أعلى ولا أسنى ، ونرى هذه السياسة ، وهذا الناموس ، وهذه الحكمة ، وهذا الجلال ، وهذا السلطان ، وهذا الجبروت ، وهذا الملك ، وهذا الملكوت أظهر سر قدره في خير خلقه .

فما تقول القدرية في جهال الخلق وعوامهم ، كيف يحكمون عليهم أنهم مالكون لأنفسهم ، وخالقون لأفعالهم ، ومستغنون في هدايتهم عن مالكمهم وبارئهم ، يفعلون ما يشاءون دون مشيئة إلههم فيخالفون أهل الحق أجمعين ، ويشاءون وإن لم يشأ الله رب العالمين خلافاً لآيات الكتاب المبين ، حيث نطق بقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ^(٢)﴾ .
وقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ^(٣)﴾ .

سورة الكهف: قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ^(٤)﴾ .

أنظر كيف خلق لهم الزينة في الدنيا ، ليختبرهم ويصيدهم بها وبلذاتها وشهواتها وزبرجها وجبرتها ، حتى لقد تفكر في أمرها وحباثلها بعض العارفين فبكى وقال: كيف الحيلة وقد نصب لنا الشرك ليصيدنا فالله المستعان على ما أبلانا . وأنشد الناظر في هذا المعنى وأحسن فيما تغنى :

(١) ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ : الاسراء .

(٢) ٢٩ : التكويز .

(٣) ٣٠ : الانسان .

(٤) ٧ : الكهف .

نصبوا اللحم للبزاة على ذروتى عدن
ثم لاموا البزاة أن جعلوا فيهم الرسن
أبرزوا وجهك المليح ثم لاموا من افتتن
لو أرادوا صلاحنا نقبوا وجهك الحسن

وأشدد الآخر:

هي الدنيا إذا اكتملت وطاب نعيمها قتلت
فلا تركزن لزهريتها فباللذات قد شغلت
وكن منها على حذر وخف منها إذا اعتدلت

وتفكر الآخر فيما سبق به القضاء والقدر، وبكى على ما حكم به المولى
وسطر، وقال: كيف الحيلة في إرضاء من غضب في الأزل، من غير ما سبق ها هنا
تسكب العبرات، وتذوب بالمهج بالحسرات، وتجري الدموع الجاريات على ما
فات وسبقت به السابقات.

وفيها قوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ
لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾^(١) وفيها ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ
عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي
ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِلَّا ابْدًا﴾^(٢).

وهذا بين الوضوح لمن أراد الرشاد ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾^(٣).

(١) ١٧: الكهف.

(٢) ٥٧: الكهف.

(٣) ٣٣: غافر.

سورة الأنبياء عليهم السلام: فيها قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ^(١) 》.

فطره الله على الرشد والاسترشاد، حتى ساقه الدليل إلى معرفة فاطر السموات وخالق العباد، حتى لقد تعرض سائل لبعض السادة من العارفين في مجلس معقود، ومشهد مشهود، فقال له: كيف يقول الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ 》 إبراهيم عليه السلام رأى كوكباً ^(٢) فقال هذا ربي ثم تبين له أنه ليس بآله ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ^(٣) 》 فتبين له أنه ليس بآله، ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوْمُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ^(٤) 》.

وهذا ما أشرنا إليه من الرشد الذي أتاه الله من قبل، أي في بدء أمره، فأجابه العارف بجواب لم يصل إليه فهمه؛ فقال السائل: أعد علي الجواب: فأعاد عليه ولكن بغير تلك العبارة فلم يفهم كلامه. فقال له بعبارة أخرى فلم يبلغه فهمه. فقال له العارف: ما الذي قرأت من العلوم حتى أخاطبك على قدر فهمك، فقد قال الحكيم: « كِلْ لِكُلِّ أَحَدٍ بِمَكْيَالِ عِلْمِهِ، وَزَنْ لَهُ بِمِيزَانِ فَهْمِهِ وَإِلَّا وَقَعَ التَّنَاحُرُ وَالْإِنْكَارُ لِفَتَاوَتِ الْمَعْيَارِ » فقال له السائل لم أقرأ علماً ولا حصلت أدباً. فقال: فما تحسن من الصنائع والتجارات؟ قال: ولا حاولت قط صناعة ولا اتخذت تجارة فقال له: يا هذا أتحسن نوعاً من اللعب؟ فقال له: أنا أحسن لعب الشطرنج، فقال

(١) ٥١: الأنبياء.

(٢) مثل هذا قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفَلِينَ 》 ٧٦: الأنعام.

(٣) ٧٧: الأنعام.

(٤) ٧٨: الأنعام.

له باسم الله فاسمع إذن واصغ إلى مثالي ، إعلم يا هذا أن الله سبحانه بسط لابراهيم خليله رقعة القدرة ، وصف عليها ميادين الحكمة ، فبرز البيدق وهو كوكبُ سماء الدُّسْتُ ، فقال له الخليل : يا هذا كيف سيرك وكيف أخذك؟ فقال : أسير معتدلاً وأخذُ مُعَوَّجاً ، فقال : لا أحب الأفلين ، فبرز الفرزان وهو قمر سماء الدُّسْتُ ، فقال له الخليل : يا هذا كيف سيرك وكيف أخذك؟ فقال : أسير معوجاً وأخذُ مُعَوَّجاً ، فقال عليه السلام لئن لم يهديني ربي لأكونن من القوم الضالين ، فبرزت الشاة وهي شمس سماء الدُّسْتُ ، فقال الخليل عليه السلام : يا هذه كيف سيرك وكيف أخذك؟ فقالت : أُلثلي يقال له هذا أنا أسير كيف شئت وأخذ كيف شئت ، فقال الخليل عليه السلام : هذا ربي هذا أكبر ثم قال : يا هذه أتعترض لك الآفات؟ قالت : نعم أحضر في بيت وأضرب شاه مات ، فعند ذلك قال الخليل : ﴿ وَجَهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ ﴾^(١) فهذا النظر الصحيح أدركه الخليل برشده الذي آتاه الله من قبل ، وقصه ووصفه الرب بقوله ﴿ وَتِلْكَ جَنَّاتٌ أَتَيْنَهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾^(٢).

سورة الحج : فيها قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴾^(٣).

وعلق وجود الهداية بإرادته سبحانه فهو المهدي لا هادي سواه .

سورة النور : فيها قوله تعالى ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾^(٤).

(١) : ٧٩ : الأنعام .

(٢) : ٨٣ : الأنعام .

(٣) : ١٦ : الحج .

(٤) : ٢١ : النور .

الغوث الغوث من قوم يعتقدون أن الله جل جلاله يكذب في التبجح في هذه الآية والله المستعان عليهم وإليه مرجعهم ومآلهم وعليه عقابهم ونكالهم .

وفيها: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) أي هادي أهل السموات والأرض^(٢).

ثم ضرب المثال لنوره جل ذلك الجلال فقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ﴾^(٣). لما مثل إيمان المؤمنين وهدايته بالنور، كذلك مثل أعمال الكفار بالظلمات فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٤).

ثم قال: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾^(٥).

(١) ٣٥: النور.

(٢) القرطبي ١٢/٢٥٧ : قال ابن عباس وأنس: المعنى الله هادي السموات والأرض.

(٣) ٣٥: النور.

(٤) ٣٩: النور.

(٥) ٤٠: النور.

مثل الله سبحانه في كتابه الايمان بالنور، والكفر بالظلمة، ومثل الايمان بالحياة، والكفر بالموت، كما تقدم شرحه.

سورة القصص: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ^(١)﴾.

وقال في نقيض هؤلاء الأئمة: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ^(٢)﴾.

هو جلّ وعلا جعل هؤلاء بهذه الصفات، وهؤلاء بنقيض تلك الصفات. ليتحقق أنه رب الأرباب وخالق الأرضين، والسموات. وانظر إلى هذه الحكمة الالهية، والمشية الربانية، قال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ^(٣)﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً^(٤)﴾. واللغة: الطرد والابعاد عن مقدمات السعادة، وعن أسباب السلامة، ومع ذلك فقد علم سبحانه، وعلمه قديم لا يتبدل ولا يتغير، إن فرعون وملأه وأعوانه وآله لا يؤمنون لأنه جعلهم أئمة يدعون إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون، واتبعناهم في هذه الدنيا لعنة، ويوم القيامة هم من المقبوحين، ومع ذلك كله أرسل الله إلى فرعون موسى وأخاه هارون، وقال لهما: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ^(٥)﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَىٰ^(٦)﴾.

(١) ٤١: القصص.

(٢) ٧٣: الأنبياء.

(٣) ٤١، ٤٢: القصص.

(٤) ٤٣، ٤٤: طه.

وقد شرحناه فيما تقدم، فانظر إلى هذا الجلال الأعظم، والسلطان الأهيب،
 منه المكر والاستدراج، والهداية والاضلال، والكفر والايمان، والطاعة والعصيان،
 وبهذه الأوصاف يُتحقق أنه الاله الموجود، والرب المعبود، والمالك المقصود، ﴿لَا
 يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾^(١). فمن قاس الاله على المألوه، والرب على
 المربوب، والخالق على المخلوق، والمالك على المملوك، والأمر على المأمور، والناهي
 على المنهي، والمكلف على المكلف فهو تائه في بحر الضلال، وخارج عن حزب
 العقلاء، داخل في غمار الجهال الأغبياء، وعمي عن إدراك الصواب، ذاهل عن
 صفات ذي الجلال، قاصر عن درك العبودية في عقله المختصر، وعلمه المحتقر، أن
 يدرك سر الاله في خلقه، ويقيس أحكامه سبحانه على مقتضى عقله، وهل هو في
 ضرب المثال إلا بمنزلة الطفل الصغير، الذي ينكر فعل الكبير العاقل المميز العالم
 الخبير، العارف بالأمور الدنيوية والأخروية، الذي هو في منزلة النبوة، ومحل
 الرسالة، وسياسة الخلق أجمعين، وعارف بالصنائع الدقيقة والجليلة، فيستجهل هذا
 الصغير رأيه، ويعمقه ويصوب رأي نفسه وعقله. إذا أنكر العاقل عليه لَعَبَهُ بِالْقَدَرِ،
 وأخذته للحية يجعلها في فمه أو الوزغة أو العقرب، فإذا نهاه ذلك الرجل الكامل
 العاقل في جميع ما شرحناه استجهله واستحمقه، وبكى وظن بنفسه أنه أكمل عقلاً
 منه، وأفضل وأصوب رأياً وأنبى، فهذه صفة القدرية والامامية مع خالقهم، ﴿وَلِلَّهِ
 الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾^(٢). وإنما ضرب الأمثال يقرب المعاني البعيدة إلى فهم القاصرين
 والمتقاعدين عن رتبة أهل البصائر والتميزين، كما ضرب الله تعالى أقل الأشياء مثلاً
 لنوره في قوله تعالى ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْلِ نُورِ﴾^(٣) كما
 قدمناه في إيمان المؤمن وما بعده في أعمال الكفار، ولقد حكى عن الطائي الشاعر أنه
 أنشد قصيدة في مجلس بعض الخلفاء يمدحه فيها حتى جاء إلى قوله:

(١) ٢٣: الأنبياء.

(٢) ٦٠: النحل.

(٣) ٣٥: النور.

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم احنف في ذكاء إياس
فنظر الحاضرون بعضهم إلى بعض إزرأاً عليه وإنكاراً لفعله، إذ شبه أمير
المؤمنين بصعاليك العرب، فتفطّن في حال إنشاده لمقصودهم، وعلم ما جال في
خواطرهم، فجاش صدره وقهقهت رويته، فقال على البديهة هذين البيتين وهما:

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في الندى والياس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس
فتفقدت القصيدة فلم يوجد هذان البيتان فيها، وإنما تصفح القرآن من
ساعته بعين قلبه، ونظم هذين البيتين ببديعته من تلقى لبه.

وفي هذه السورة يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ
اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ^(١)﴾.

ذكر في التفسير أن قوله تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ نزلت في أبي
طالب عم رسول الله ﷺ وأنها خصّت أبا طالب^(٢) وعمت ﴿ولكن الله يهدي من
يشاء﴾ خصّت هذه عمه العباس^(٣) وعمّت، وبعد ذلك كله يقول الله تعالى:
﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا
يُشْرِكُونَ^(٤)﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا
إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(٥)﴾.

(١) ٥٦: القصص.

(٢) القرطبي ٢٩٩/١٣: أجمع جل المفسرين على أنها نزلت في شأن أبي طالب عم النبي ﷺ، وهو
نص البخاري ومسلم.

- أنظر البخاري، كتاب الجنائز: باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله.

- انظر مسلم، كتاب الإيمان باب الدليل على صحة اسلام من حضره الموت... الخ.

(٣) القرطبي ٢٩٩/١٣: ﴿ولكن الله يهدي من يشاء﴾ إشارة إلى العباس، قاله قتادة.

(٤) ٦٨، ٦٩، ٧٠: القصص.

سورة الروم: فيها آيتان قاصمتان لظهور القدرية، الذين يعتقدون أن مع الله تعالى شركاء خلقوا كخلقه، أوردهما الله سبحانه في ضرب المثل ليظهر قباحة الشراكة فيما استأثر الله به لكل عاقل والله المثل الأعلى وهما قوله تعالى:

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَارَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ
نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ^(١) ﴾

ثم قال: ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ
أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ^(٢) ﴾.

سورة السجدة: قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَٰكِنَّ
حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ^(٣) ﴾.

والقدرية تقول في هذه الآية وغيرها من الآيات التي علّق فيها الهداية بمشيئته:
إن ذلك لو كان منه لكان على طريق الاجراء، قالوا: ونحن نقول ذلك: وإن الله
تعالى لو شاء أن يلجئ الكفار إلى الايمان بالله لفعل ذلك، لكن لا يحسن منه فعله
لأنه ينقض الغرض المجري بالتكليف إليه، وهو الثواب الذي لا يستحق إلا بما يفعله
المكلف باختياره.

(١) ٢٨: الروم.

(٢) ٢٩: الروم.

(٣) ١٣: السجدة.

وقالت الامامية منهم في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هِدَاهَا ﴾ الآية، إنه يجوز أن يريد هداها إلى طريق الجنة في الآخرة ولم يعاقب أحداً، لكن حق القول منه أنه يملأ جهنم، فلا يجب على الله عندنا هداية الكل إليها: قالوا: بل الواجب هداية المعصومين فأما من له ذنب فجائز هدايته إلى النار جزاء على أفعاله وفي جواز ذلك منع لقطعهم على أن المراد هداها إلى الإيمان.

فنقول قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هِدَاهَا ﴾ أخبر سبحانه إن لو شاء لآتى كل نفس هداها الذي هو نافع لها في معادها، والهدى النافع في المعاد هو الإيمان والطاعة الواقع على جهة الاختيار لا على جهة الاضطرار، وقد تكلم العلماء عليهم في هذين التأويلين ما فيه كفاية، لا سيما في كتاب « الاملاء » للشيخ الفقيه العالم الأوحد أبي القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الحباب رحمة الله عليه، فإنه كلام ممتع في الكلام عليهم في هذا الفن في كل آية أوردت حجة عليهم أو شبهة لهم، فاطلبه تظفر بالمطلوب إن شاء الله تعالى.

والذي لا بد منه في هذه اللمحة المختصرة، أن يقال: فقد بطل عندنا وعندكم، أن يهديهم الله سبحانه على طريق الاجزاء، لأن الاجزاء هو الإكراه والاجبار، فصار ذلك يؤدي إلى مذهب الجبرية وهو مذهب رذل عندنا وعندكم، فلم يبقَ إلا أن المهتدين من المؤمنين، إنما هداهم الله إلى الإيمان والطاعة على طريقة الاختيار حتى يصح التكليف، فمن شاء آمن وأطاع إختياراً لا جبراً.

قال الله تعالى: ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾^(٢) تم عقب هاتين الآيتين

بقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾^(٣).

(١) ٢٨: التكوير.

(٢) ١٩: المزمل، ٢٩: الانسان.

(٣) ٣٠: الانسان.

فوقع إيمان المؤمنين بمشيئتهم ونفى أن يشاءوا إلا أن يشاء الله ، ولهذا أفرطت المجبرة لما رأوا أن هدايتهم معذوف بمشيئته تعالى ، فقالوا الخلق مجبورون في طاعتهم كلها ، إلتفاتاً منهم إلى قوله تعالى : ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾ وفرطت القدرية لما رأوا أن هدايتهم إلى الايمان معذوف بمشيئة العباد ، فقالوا الخلق خالقون لأفعالهم إلتفاتاً منهم إلى قوله تعالى : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ ومذهبنا هو الاقتصاد في الاعتقاد وهو مذهب بين مذهبي المجبرة والقدرية ، وخير الأمور أوسطها ، وذلك أن أهل الحق قالوا نحن نفرق بين ما اضطررنا إليه وبين ما اخترناه ، بما كنا قدمناه في صدر الكتاب ، وهو أننا ندرك تفرقة بيّنة بين حركة الارتعاش الواقعة في يد الانسان بغير محاولته وإرادته ولا مقرونة بقدرته ، وبين حركة الاختيار إذا حرك يده حركة ماثلة لحركة الارتعاش ، ومن لا يفرق بين الحركتين حركة الاختيار وحركة الارتعاش وهما موجودتان في ذاته ، ومحسوستان في يده ، لمشاهدته وإدراك حاسته ، فهو معتوه في عقله ، ومختل في حسيه ، وخارج من حزب العقلاء .

هذا هو الحق المبين ، وهو طريق بين طريقي الافراط والتفريط ، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم ، وبهذا الاعتبار إختار أهل النظر من العلماء أن سموا هذه المنزلة بين المنزلتين كسباً ، وأخذوا هذه التسمية من كتاب الله عز وجل ، وهو قوله سبحانه : ﴿ هَٰذَا مَا كَسَبَتْ وَ عَلَيْهَا مَا أَكْتَسَبَتْ ﴾^(١) وظهر لك من هذا أن إكتسابات العباد خلق لله تعالى دونهم ، وكسب لهم دون الله تعالى ، لأن الكسب لا يتصور من الله تعالى لتعلقه بالقدرة الحادثة ، ولا يتصور الخلق من المخلوقين لعدم علمهم بتفاصيل ما يصدر منهم ، ولما قام من الدليل أن لا خالق إلا الله . وللفقيه أبي القاسم رحمة الله عليه في هذه المسألة تصنيف ممتع ، بين فيه حقيقة الكسب أملاه علي فاطله .

وقد قامت الأدلة البراهينية في الآيات الكتابية ، أن الله سبحانه ﴿ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾^(٢) وأن كلا من عند الله ، وأن الله ﴿ خَلَقَكُمْ فَنُكِرَ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ ﴾^(٣)

(١) ٢٨٦ : البقرة .

(٢) ١٦ : الرعد .

(٣) ٢ : التغابن .

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١) ، أي وعملكم و ﴿زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ
عَمَلُهُمْ﴾^(٢) و ﴿حَبَبَ إِلَيْكُمْ الْأَيْمَنَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^(٣)
و ﴿لَّا تَأْتِنُوا عَلَىٰ إِسْلَامِكُمْ بِاللَّهِ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنَّ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾^(٤).

وأماها في القرآن كثير، وقول النبي ﷺ : « كنز من كنوز الجنة لا حول ولا
قوة إلا بالله ، قال : أتدرون ما تفسيرها؟ لا حول عن معصية الله ولا قوة على طاعة
الله إلا بالله^(٥) ». وقوله عليه السلام : « إن الله خالق كل صانع وصنعتة^(٦) ».

وشبه هذه المسئلة مسألة الكلام أنه حرف وصوت ، واختلفوا في إجراء صفة
الكلام على الله تعالى ، فقالت الحشوية : هو من صفات الله تعالى هرباً من أن يجعلوه
محدثاً ، وقالت المعتزلة هو من صفات أفعاله هرباً من أن يجعلوا الصوت والحرف
قديماً ، فوصفت الحشوية ربها بأنه في أزل أزله متكلم بصوت وحرف . وقالت المعتزلة
إن كلامه محدث مخلوق ، فلزمهم أن يكون جل جلاله قبل أن يحدث كلامه إما ساكناً
وإما أخرس ، وكلاهما صفتان ذم ، تعالى الله عن قبولهما . وكونه متكلماً صفة كمال وهو
أحق أن يوصف بها ، ويلزم المعتزلة لما أحدث كلامه إما أن يكون أحدثه في ذاته
فيصير محلاً للحوادث ، وإذا كان محلاً للحوادث وجب أن يكون محدثاً ، وإما أن
يكون خلقه وأحدثه لا في محل وهذا يوجب قيام الصفة بنفسها لا في محل ، وهو
مستحيل ، وإما أن يكون خلق كلامه وأحدثه في غيره كما قال بعضهم خلقه في
الشجرة ، فلزمهم أن تكون الشجرة هي الكلمة لموسى عليه السلام ، وأن تكون هي
القائلة أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وهو باطل أيضاً ، وإنما أعمت قلوبهم أنه وردت
في كتاب الله تعالى لم يفقهوا معناها ، وهي قوله تعالى :

(١) ٩٦ : الصافات .

(٢) ١٠٨ : الأنعام .

(٣) ٧ . الحجرات .

(٤) ١٧ : الحجرات .

(٥) انظر كنز العمال ١/ ٥٩٩ الباب الثالث في الحوقلة . فقد ساق الفاضل كثيرة في هذا المعنى .

(٦) رواه البخاري في خلق أفعال العباد : ص/ ٤٦ باب أفعال العباد .

﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ ﴾^(١) ولا يشك عاقل أن القرآن محدث التنزيل ، ولم ينزل القرآن على محمد ﷺ إلا نجوماً ، شيئاً بعد شيء في نيف وعشرين سنة .

فالله تعالى يقول لنبيه عليه السلام ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾^(٢) ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾^(٣) .
وقوله بعد النبوة والرسالة: ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾^(٤) حتى

(١) ٢ : الأنبياء .

(٢) ٥٢ : الشورى .

- الشفا ٢/٢٦٦ : معنى قوله ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ فالجواب أن السمرقندي قال : معناه : ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان ، وقال أبو بكر القاضي نحوه . قال : ولا الإيمان الذي هو الفرائض والأحكام ، قال : فكان قبل مؤمناً بتوحيده ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يدريها قبل ، فزاد بالتكليف إيماناً وهو أحسن وجوهه .

(٣) ٧ : الصبحى

- الشفا ٢/٢٦٢ : فما معنى قوله ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ ؟ فليس هو من الضلال الذي هو الكفر . وقيل : وجدك بين أهل الصلال فعصمك من ذلك ، وهداك للإيمان وإلى إرشادهم . ونحوه عن السدي وغير واحد .

(٤) ٩ : الأحقاف .

- القرطبي ٦/١٨٧ : وقيل : المعنى لا أدري ما يفرض علي وعليكم من الفرائض واختار الطبري أن يكون المعنى : ما أدري ما يصير إليه أمري وأمركم في الدنيا أتؤمنون أم تكفرون ، أم تعاجلون بالعذاب أم تؤخرون . قلت : وهو معنى قول الحسن والسدي وغيرهما . قال الحسن : ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا ، أما في الآخرة فمعاذ الله ! قد علم أنه في الحنة حين أخذ ميثاقه من الرسل ، ولكن قال ما أدري ما يفعل بي في الدنيا : أأخرج كما أخرجت الأنبياء قبلي ، أو أقتل كما قتلت الأنبياء قبلي ، ولا أدري ما يفعل بكم .
ثم نزلت : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴾ .

نسخت بقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(١) الآيات الواردة فيه ﷺ وفي المؤمنين وفي المشركين إلى قوله ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(٢) فلو كانت هذه الآيات نزلت عليه أولاً لما قال: ﴿وَمَا أَدْرَى مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا يَكُفَّرُ﴾^(٣). وهذه جهالة من أهل الاعتزال بصفات ذي الجلال والكمال.

والخشوية أصابوا الحق من حيث قالوا أنه متكلم في أزل أزله بكلام قديم أزلي كسائر صفاته الذاتية، وأخطأوا في قولهم أن كلامه صوت وحرف. والمعتزلة أخطأوا في قولهم: إن كلام الله صوت وحرف، وأصابوا في كونهم نزها ذات الله عن الحرف والصوت، ولكنه تنزيه فيه عدم التنزيه فلزم منه جميع ما ذكرناه.

ومذهبنا هو الحق المبين، وهو مذهب بين طريقي الإفراط من المعتزلة والتفريط من الخشوية، وهو أن الله تعالى متكلم بكلام أزلي قديم كسائر صفاته، وأن حقيقة الكلام أنه معنئ قائم بالنفس وليس بحرف ولا صوت، وإنما يستدل عليه بالحروف والأصوات ليفهم الغير، تارة للحاضر إذا كان يفهم لغتنا، وبلغته تارة إذا كان عجمياً، وتارة بالحروف وحدها إذا كان غائباً، وإن كان حاضراً وهو آخرس، فيستدل على الكلام القائم بذاته بالاشارة والايحاء، ولا يطبق أحد من البشر، أن يوصل كلامه القائم بذاته إلى افهام غيره من الخلق إلا بالحروف والأصوات. فأما ربنا جلّ وعلا فيكلم خلقه على ثلاثة أنحاء: إما إلهاماً كالخضر عليه السلام، وإما من وراء حجاب كموسى عليه السلام، وإما بإرسال رسول كمحمد ﷺ. قال الله

■ يقول: ثم قال في أمته: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ فأخبره تعالى بما يصنع به وبأمته، ولا نسخ على هذا كله، والحمد لله.

(١) ١: الفتح.

(٢) ٦: الفتح.

(٣) فعلى هذا السياق يكون المعنى: على ما قد مرّ تفسير الآية: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في دار الدنيا. أنظر أضواء البيان ٣٧٧/٧.

تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا^(١)﴾. فأين الحرف والصوت ها هنا، وإين اشتبه عليهم في تكليم موسى وإرسال الرسول؟ فما في إلهام الخضر عليه السلام إشتباه والحمد لله، فليتأمل، ففيها شفاء للصدور.

وكذلك لا يطيق البشر أن يتلوا كلام الله تعالى ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ^(٢)﴾ تأمل قوله: ﴿يسرناه﴾ ففيه معنى الصنع، وقوله: ﴿بلسانك﴾ ففيه معنى لغة الغرب. وكذلك قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا^(٣)﴾. ففي جعلناه معنى صيرناه، وفي قوله عربياً معنى اللغة.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ^(٤)﴾. فانظر إلى فضل الله سبحانه ولطفه بخلقه، وعظيم كلامه في طي حروف وأصوات، هي صفات أنفسهم، كما يصنع الخلق في إفهام كلامهم الصادر عن أنوار عقولهم إلى بواطن البهائم فيما يراد من تقديمها وتأخيرها، ومشيتها وقوفها، وشر بها الماء، بوسيلة صفات البهائم من النقر والصفير والأصوات التي تشاكلها.

وكذلك الطفل الصغير فيما يخاطب به عند الزجر والتخويف والترغيب والتفهيم في الأشياء المضرة المفزعة، والأشياء الملهة الحسنة بنوع من الألفاظ المشاكلة لفهمه، فصارت الحروف والأصوات والكتابة تعظم وتوقر وتحترم، إذا كتب بها كلام الله أو تلى، وإذا لم يكتب بها إلا الشعر وكلام المخلوقين لم يكن لها حرمة ولا تعظيم ولا توقير، ولا يوجب ذلك قدمها، كحجارة البيت العتيق قطعت من الجبل

(١) ٥١: الشورى.

(٢) ٩٧: مريم.

(٣) ٣: الزخرف.

(٤) ٢٢، ٣٢، ٤٠: القمر.

فبنيت بها الكعبة، فعظمت بالطواف حولها ولا يقربها حائض ولا جنب ولا من على غير وضوء.

فكذلك المصحف ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾^(١) ولا يسافر به إلى أرض العدو احتراماً لكلام الله تعالى، ولا يوجب ذلك قدم المصحف كما لا يوجب قدم الكعبة ولا قدم الحجر الأسود الذي يُعَظَّم ويقبل ويلتزم.

وكذلك تعظيم الأنبياء واحترامهم لا يوجب قدمهم، فما أعظم جهل الحشوية وما أحقهم، وصارت الحروف والأصوات والكتابة كأنها جسد لروح كلام الله، وصار كلام الله كأنه روح الأجساد، الحروف والأصوات والكتابة، وما أحسن ما تفتن له بعض الشعراء حيث قال:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

وقد أخبر عن المعنيين جميعاً بقوله تعالى ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ

إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٢)

وبقوله تعالى ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾^(٣)

ثم قال ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾^(٤) الا تراهم كيف لما دخلوا على النبي ﷺ غشوه في التحية بالنطق بلسانهم، وأخبر الله عن كلامهم الموجود في بواطنهم بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ وبقوله تعالى: ﴿بِمَا نَقُولُ﴾.

واعلم بعد ذلك كله أن المعتزلة إنما تلقوا إعتقادهم في كلام الله تعالى من العقل المحض، والحشوية تلقوا إعتقادهم في كلام الله تعالى من ظاهر الشرع

(١) ٧٩: الواقعة.

(٢) ١٣: الملك.

(٣) ٨: المجادلة.

(٤) ٨: المجادلة.

المحضر، ومن العرف الجاري به العادة فيما يتخاطب به الخلق، فظنوا أن كلام الله مثل كلامهم فحكموا على الغائب عنهم بالشاهد عندهم، ومن قاس الغائب على الشاهد فقد أخطأ عند جماعة المتكلمين وأهل العقل أجمعين فلا يحمل علم العالم على جهل الجاهل، وكونهم يقولون: لا يفهم كلاماً إلا صوتاً وحرماً فكلام العوام ومن لا يدري شيئاً ولا يعرف حقيقة لا ولا مجازاً، وسبب ذلك كله عدم ممارستهم للعلماء، بل لطلبه العلم من أهل الكلام، فهؤلاء فرطوا وأولئك أفرطوا وأهل الحق جمعوا بين المعقول والمنقول، أي بين العقل والشرع، واستعانوا في درك الحقائق بمجموعهما فسلكوا طريقاً بين طريقي الإفراط والتفريط، وسنضرب لك مثلاً يقرب من إفهام القاصرين ذكره العلماء كما أن الله تعالى يضرب الأمثال للناس لعلمهم يتذكرون، فنقول لذوي العقول مثال العقل العين الباصرة، ومثال الشرع الشمس المضيئة، فمن استعمل العقل دون الشرع كان بمنزلة من خرج في الليل الأسود البهيم وفتح بصره يريد أن يدرك المرثيات، ويفرق بين المبصرات، فيعرف الخيط الأبيض من الخيط الأسود والأحمر من الأخضر والأصفر، ويجتهد في تحديق البصر فلا يدرك ما أراد أبداً مع عدم الشمس النيرة وإن كان ذا بصر وبصيرة، ومثال من استعمل الشرع دون العقل، مثال من خرج نهاراً جهاراً وهو أعمى أو مغمض العينين، يريد أن يدرك الألوان ويفرق بين الأعراض، فلا يدرك الآخر شيئاً أبداً، ومثال من استعمل العقل والشرع جميعاً مثال من خرج بالنهار وهو سالم البصر، مفتوح العينين والشمس ظاهرة مضيئة، فما أجدره وأحقه أن يدرك الألوان على حقائقها، ويفرق بين أسودها وأحمرها وأبيضها وأصفرها.

فنحن بحمد الله السالكون لهذه الطريق وهي الطريق المستقيم، وصراط الله المبين، ومن زل عنها وحاد وقع في طريق الشيطان المتشعبة عن اليمين والشمال.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾^(١).

(١) ١٥٣: الأنعام.

وقال تعالى ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾^(١). وقال النبي ﷺ : تفرقت بنو اسرائيل على إثنين وسبعين ملة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين - يزيد عليهم ملة واحدة - كلها في النار إلا واحدة، فسألوه عن هذه الواحدة فقال: ما أنا عليه وأصحابي^(٢).

فالله تعالى يثبتنا عليها، ولا يحيد بنا عنها، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وسألت بعض العلماء العارفين ما هذه الفرقة التي زادت في فرق أمة محمد ﷺ؟ فقال: رأيت في كلام المحققين الباحثين العارفين أن هذه الفرقة الزائدة في هذه الأمة قوم يتعرضون العلماء ويعادون الفقهاء، ولم يكن ذلك قط في الأمم السالفة ففتشت فوجدت ذلك صحيحاً. فله الحمد وله المنة. فإنما أطلنا الكلام هنا لأن هذه الآية ومثلها من الآيات في القرآن كثير، تتضمن تعليق الهداية بمشيئة الرب سبحانه، فأوضحنا القول فيها بما يقتضي إيصال المقصود منها إلى فهم القاصر، والتارك النظر في علم الكلام، ونقرب من إفهام العوام، والله الموفق للصواب.

سورة الملائكة عليهم السلام: قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ أَلَّفَ اللَّهُ يَضِلُّ مِنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾^(٣) وقد تقدم ذكرها.

(١) ١١٥ : النساء.

(٢) ورد هذا الحديث بعدة الفاظ ولفظ : «ما أنا عليه وأصحابي» أخرجه الترمذي في الايمان: باب ما جاء في افتراق هذه الامة وقال: حديث حسن صحيح ، وأما لفظة «الجماعة» فقد أخرجه أبو داود في سننه في السنة: باب شرح السنة.

(٣) ٨ : فاطر.

سورة يس: فيها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ
فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ^(١)﴾ إلى قوله: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ^(٢)﴾.

سورة الصافات: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ^(٣)﴾ إِذْ جَاءَ
رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ^(٤)﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْنَتُونَ^(٥)﴾
يُؤَالِلُهُ خَلْقُكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ^(٦)﴾.

تأمل قوله: ﴿أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون﴾ ولا
يستريب في أن الله خلق الخلق وأعمالهم، لأنهم كانوا ينحتون الأصنام ويعبدونها من
دون الله، فأزرى عليهم وبكتهم، لأن النحت فعلهم وعملهم، وقد أخبرك الله أنه
خلقهم وعملهم، ومن عملهم أيضاً سجودهم للأصنام، وهي عبادتهم لها فأزرى
عليهم، وقال: أنا خلقتكم وخلقتم عملكم، وهو نحتكم للأصنام وسجودكم لها،
فكيف تعبدون ما تنحتون وأنا الخالق لكم ولأعمالكم، فأنتم ملكي وأعمالكم خلقي
فكيف تعبدون غيبي بما خلقته فيكم مع كونكم خلقي وملكلي، على نحو قوله
تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا^(٧)﴾ لأن المساجد هي الارباب

(١) ٧: يس.

(٢) ١٠: يس.

(٣) ٨٣، ٨٤: الصافات.

(٤) ٩٥، ٩٦: الصافات.

(٥) ١٨: الجن.

السبعة وهي الوجه واليدان والرجلان والركبتان^(١) فكأنه سبحانه يقول هذه الارباب خلقي وملكي وكيف تسجدون عليها لغيري .

فاعتبر الاثنين وتأملهما ، وأجل فكرك فيها فلا عبادة كالتفكير ، والتفكير سبحانه يحطر الحكمة ، فتفكر في آيات الكتاب وفي آيات صنعه تعثر على الصواب .

سورة الزمر: يقول فيها: ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ^(٢) ﴾ وفيها يقول: ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ^(٣) ﴾ ثم قال: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ^(٤) ﴾ .

وفيها يقول: ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ^(٥) ﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ^(٥) .

(١) القرطبي ٢٠ / ١٩ : وقال سعيد بن المسيب وطلّح بن حبيب: أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد، وهي القدمان والركبتان واليدان والوجه ، يقول: هذه الأعضاء أنعم الله بها عليك ، فلا تسجد لغيره بها ، فتجحد نعمة الله ؛ قال عطاء: مساجدك: أعضاؤك التي أمرت أن تسجد عليها لا تذللها لغير خالقها .

(٢) ١٩ : الزمر .

(٣) ٢٢ : الزمر .

(٤) ٢٣ : الزمر .

(٥) ٣٦ ، ٣٧ : الزمر .

سورة المؤمن^(١): قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ^(٢)﴾.

سورة الشورى: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ^(٣)﴾.

جريباً على سنته فيما تقدم من الآيات، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً.

وكذلك الآية التي في آخر السورة: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ^(٤)﴾.

قال تعالى في موضع آخر: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ^(٥)﴾ لأنه قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ^(٦)﴾ فافهم راشداً هذه النكت توفيق إن شاء الله.

(١) وتسمى: سورة غافر.

(٢) ٣٣: غافر.

(٣) ٨: غافر.

(٤) ٤٤: الشورى.

(٥) ٢٨: الأنعام.

(٦) ١٤: تبارك.

سورة الجاثية: فيها قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًّا فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ^(١)﴾ هذه الآية ذابحة لحلول القدرية والامامية ومن سلك سبيلهم في الاعتقاد ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ^(٢)﴾.

سورة الحجرات: في أولها قوله تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ لَا يَمُنُّ ذَا ظَنٍّ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ^(٣)﴾ لا إله إلا الله ، ولا شريك مع الله في خلق ذوات الخلق ، وخلق أفعالهم وصفاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم ، فإنه الواحد القهار يخلق ما يشاء ويختار.

وفي آخرها قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تُؤْمِنُوا عَلَيَّ إِلَّا سَلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(٤)﴾.

سورة القمر: سمعت الشيخ الفقيه أبا حفص عمر الذهبي رحمه الله عليه يقول: إذا كان يوم القيامة تسحب القدرية في النار على وجوههم ، ويقال لهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ^(٥)﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ^(٥)﴾ ووجدت في كتاب

(١) ٢٣ : الغاشية .

(٢) ٢٣ ، الرعد؛ ٢٣ : الزمر .

(٣) ٧ : الحجرات .

(٤) ١٧ : الحجرات .

(٥) ٤٨ ، ٤٩ : القمر .

«التحصيل» للمهدوي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾^(١) قيل المجرمون في هذه الآية القدريّة . وفيه يقول : قال أبو هريرة جاء مشركو العرب الى رسول الله ﷺ يخاصمونهم في القدر فنزلت: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾^(٢) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ^(٣) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ^(٤).

وتشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى^(٥)﴾ . وقبلها: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ^(٦)﴾ الآية.

سورة المجادلة : فيها قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ^(٧)﴾.

والقدريّة يقولون: إنهم يمحون ما كتب الله في قلوبهم إذا همّوا وأرادوا وهذه مغالبة، تعالى الله في جلال تعاليه علواً كبيراً.

بل قال سبحانه قبل هذه الآية: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَا غَلِبَ إِلَّا أَنَا وَرُسُلِي إِنَّا اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ^(٨)﴾ وهذا هو الحق المبين لمن هداه الله ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ^(٩)﴾.

(١) ٤٧ : القمر .
(٢) ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ : القمر . وانظر صحيح مسلم كتاب القدر : باب كل شيء بقدر .

(٣) ١٣ : السجدة .

(٤) ١٢ : السجدة .

(٥) ٢٢ : المجادلة .

(٦) ٢١ : المجادلة .

(٧) ٤٦ : الحج .

سورة الملك: قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١٤) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١) ﴿.

استدل على علمه سبحانه بخلق أفعال العباد، ففيها رد على القدرية والمعتزلة والحشوية، وذلك أن فيها دلالة على خلق أفعال العباد وعلى علمه سبحانه، وعلى أن القول يكون تارة في النفس وتارة بالصوت والحرف، فاعلم.

وفي سورة ن (٢): قوله في شأن يونس عليه السلام: ﴿لَوْلَا أَن تَذَرَكَّهُ نِعْمَةً مِّن رَّبِّهِ لَنَبَذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ (٢٩) فَأَجَبَتْهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٣) ﴿ جرياً على عادته مع الأنبياء عليهم السلام فيما تقدم.

سورة المدثر: قوله تعالى في شأن الوليد بن المغيرة المخزومي: ﴿سَاصِلِهِ سَقَرٌ﴾ (٢٦) وَمَا أَذْرَنْكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٤) ﴿ لما نزلت هذه الآية قال أبو جهل (٥): يا معشر قريش أتعجزون وأنتم الملاء أن يكفيني كل مائة منكم رجلاً واحداً، إن محمداً يزعم أن ليس يعذب في النار إلا تسعة عشر. فأنزل الله تعالى عقيب ذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ

(١) ١٣، ١٤: الملك.

(٢) وتسمى: القلم.

(٣) ٤٩، ٥٠: القلم.

(٤) ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠: المدثر.

(٥) أنظر القرطبي ١٩/ ٨٠ - ٨١، فيها ذكر نحو هذه القصة.

كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ^(١) ﴿ يعني اليهود والنصارى ، لأن ذلك في كتابهم المنزل على نبيهم ﴾ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ءِإِمَانًا ^(٢) ﴿ بما وجدوه عند أهل الكتاب موافقاً لما عندهم في كتابهم ﴾ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ^(٣) ﴿ أي لا يشركون فيما أنزل عليهم في كتابهم ، والمؤمنون أيضاً كذلك فيما أنزل على محمد ﷺ ﴾ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ^(٤) ﴿ يعني المنافقين ﴾ وَالْكَافِرُونَ ^(٥) ﴿ يعني قريشاً ﴾ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ^(٦) ﴿ فأجابهم الله سبحانه بقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ^(٧) ﴾ . قال في التفسير ^(٨) أي كما أضل الله هؤلاء المنافقين والمشركين ، كذلك يضل الله من يشاء من خلقه فيخذله عن إصابة الحق ، ويهدي من يشاء فيوفقه للحق .

وفي التنزيل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أَنزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ ءِإِمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ ءِإِمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ^(٩) ﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ^(١٠) ﴾ فتأمل أن آية واحدة يضل بها قوماً ، ويهدي بها آخرين ، بل يزيدهم بها إيماناً وهم يستبشرون . كهذه الآية التي قال فيها :

(١) ٣١ : المذثر .

(٢) القرطبي ٨٢/١٩ : ﴿ وكذلك ﴾ أي كإضلال الله أبا جهل وأصحابه المنكرين لخزنة جهنم

﴿ يضل الله ﴾ أي يخزي ويعمي ﴿ من يشاء ويهدي ﴾ أي ويرشد ﴿ من يشاء ﴾ كإرشاد

أصحاب محمد ﷺ . وقيل : ﴿ كذلك يضل الله ﴾ عن الجنة ﴿ من يشاء ويهدي ﴾ إليها

﴿ من يشاء ﴾ .

(٣) ١٢٤ ، ١٢٥ : التوبة .

﴿لَيَسْتَبِقَنَّ الَّذِينَ أَوْتُوا إِلِكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ءِإِمْنًا﴾^(١)
والكتاب لمن تأمله يشد بعضه بعضاً ويشهد بعضه لبعض .

وفيها: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذِكْرَةٌ ۝١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ^(٢) ﴿ثم قال: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ۝١٢﴾﴾^(٣).

هل أتى على الإنسان: فيها قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝١٣﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا^(٤) ﴿ وفي آخرها: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ۝١٤﴾ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝١٥﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٦﴾ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۝١٧﴾ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٨﴾﴾^(٥).

سورة التكوير: قوله تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾^(٦)
ثم قال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٧).

(١) ٣١: المدثر.

(٢) ١١، ١٢: عبس.

(٣) ٥٦: المدثر.

(٤) ٢، ٣: الانسان.

(٥) ٢٩، ٣٠، ٣١: الانسان.

(٦) ٢٨: التكوير.

(٧) ٢٩: التكوير.

سورة الشمس وضحاها: قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾.

إذا احتج محتج بهذه الآية على القدرية وهي قوله: ﴿قد أفلح من زكاها﴾ أي من زكى الله نفسه، ﴿وقد خاب من دساها﴾ قال الضمير في زكى يعود على «من» ولا يعود على الله كما فعلوا في الضمير في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ (٢) كما تقدم من قولهم أن الضمير في يشرح، وفي يجعل يعود على من، ولا يعود على الله تعالى، فيقال لمن قال ذلك: فما تصنع في الآية التي قبلها؟ وهي قوله تعالى: ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾. ويشد هذا قول النبي ﷺ في دعائه المقتبس من الكتاب العزيز: «اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها» (٣).

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ (٤).

(١) ١٠، ٩، ٨، ٧: الشمس.

(٢) ١٢٥: الأنعام.

(٣) رواه النسائي في «المجتبى» كتاب الاستعاذة: باب الاستعاذة من دعاء لا يستجاب، ومسلم في صحيحه كتاب الذكر: باب التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل، ورواه أحمد في مسنده ٣٧١/٤، ٢٠٩/٦.

(٤) ٢١: النور.

سورة والليل إذا يغشى : قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ﴾^(١)
وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾
وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ .

حدثنا الشيخ الفقيه أبو القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الحباب رضي الله عنه بإسناده الى رسول الله ﷺ ، رواه علي بن أبي طالب عليه السلام ، قال : « كنا في جنازة في بقيع الغرقد ، قال فأتانا رسول الله ﷺ ففعد وقعدنا حوله ، ومعه مخصره فنكس رأسه فجعل ينكت بمخصرته ثم قال : « ما منكم من أحد من نفس منفوسة إلا وقد كتب مكانها من الجنة والنار ، وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة » فقال رجل : يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ، فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ، فقال عليه السلام : « إعملوا فكل ميسر أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ ﷻ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ﴾^(١) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ .

والقدرية تقول إنما ذلك من الله تعالى على طريق الجزاء ، فيقال لهم : من مذهبكم أن الله تعالى يجب عليه مراعاة الأصلح لعباده ، فما باله عرضهم للنار بتيسير عمل العسري ، أما كان ييسر عليهم طريق التوبة والانابة إليه ، والصلاح ، والفلاح ، فيكون ذلك أصلح لهم ، وذلك عندكم هو واجب على الله أن يفعله

(١) ١٠، ٩، ٨، ٧، ٦، ٥ : الليل .

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب القدر : باب كيفية الخلق الادمي في بطن امه ، وكتابة رزقه واجله وعمله ، وشقاوته وسعادته ، والبحاري بحوه كتاب الحناثر : باب موعظة المحدث عند القبر .

لعباده، وإلا خرج عن الحكمة وانعزل عن الالهية، وما باله أن لم يفعل لهم ذلك ما أماتهم أطفالاً قبل أن يبلغوا الحلم، فيدخلوا بالمال ينفقونه في سبيل الله، ويستغنون عن ربهم، فلم يرغبوا في العمل بطاعته، ولم يكذبوا بالحسنى، وإذا فعل بهم ذلك وأماتهم صغاراً أدخلهم الجنة كما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾^(١) ﴿فإذا دخلوا إلى الجنة ونظروا إلى أهل الأعمال في عليين قالوا: يا ربنا ما بالك لم تعطنا كما أعطيت أهل عليين فيقول: هؤلاء أهل الأعمال الصالحة وأنتم صغاراً لم تبلغوا ولم تعملوا، فيقولون: يا ربنا فأنت أمتنا صغاراً ولم تنظر لنا بالأصلح، ولو أبقيتنا حتى نبلغ الحلم لعملنا كما عمل أهل عليين، فجازينا كما جازيتهم، فيقول لهم: علمت أنكم إذا بلغتكم كفرتم وعصيتهم فأدخلكم النار، فنظرت لكم بالمصلحة فأمتكم صغاراً فأدخلتكم الجنة، وهذا هو الأصلح لكم. فعند ذلك ينادي أهل النار من دركات لظى: واجواره يا ربنا لو أمتنا صغاراً كان الأصلح لنا أن نكون مع أطفال أهل الجنة في أقل منازلها، فيخصم الرب جل جلاله على مذهب المعتزلة، ويتعالى حكم ذلك الجلال أن يوزن بميزان أهل الاعتزال.

سورة الضحى: فيها قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾^(٢).

ثم أمره بثلاثة في مقابلة هذه الثلاثة، فقال سبحانه في مقابلة: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾ ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾^(٣) وقال في مقابلة: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾^(٤) فمن استرشدك فارشده، ومن سألَكَ فأجبه

(١) ٢١: الطور.

(٢) ٨، ٧، ٦: الضحى.

(٣) ٩: الضحى.

(٤) ١٠: الضحى.

ولا تنهره، وقال في مقابلة: ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ^(١)﴾ فإذا فعل ذلك فقد قام بشكر ما أياه الله من نعمة التي أولاه إياها، فتفهّم راشداً إن شاء الله.

كذلك أيضاً عدد عليه نعمة في ﴿الرَّ شَرَحَ لَكَ صَدْرَكَ^(٢)﴾ إلى قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ^(٣)﴾ ممّ ألزمه بشكر ذلك فقال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ^(٤)﴾.

سورة الفلق: قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ^(٥)﴾ والقدرية تقول ما خلق الله شراً، كما يقول المجوس. ولهذا قال رسول الله ﷺ: «القدرية مجوس هذه الأمة^(٦)». وذلك أن من المجوس من يقول بالثنوية فيقولون للعالم إلهان، أحدهما يخلق الخير والأنوار وهو الرحمن، والآخر يخلق الشر والظلمة وهو الشيطان، وأنها اختلفا ثم تهادنا إلى وقت مخصوص معلوم، يعبرون عنه بالقيامة، ويسمون بالثنوية^(٧) والمناوية^(٨) ينسبون إلى ماني المجوسي الذي كان في زمان كسرى، وهم الذين عناهم المتنبي بقوله:

(١) ١١: الضحى.

(٢) ١: الشرح.

(٣) ٤: الشرح.

(٤) ٧، ٨: الشرح.

(٥) ٢: الفلق.

(٦) رواه أبو داود في سننه في أول كتاب القدر بزيادة: «ان مرضوا فلا تعودوهم، وان ماتوا فلا تشهدوهم» ورمز له السيوطي في الجامع ٢/٢٦٣ بالصحة.

(٧) الملل والنحل ١/٢٤٤: يقول الشهرستاني عن الثنوية يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان، بخلاف المجوس، فإنهم قالوا بحدوث الظلام، وذكروا سبب حدوثه. وهؤلاء قالوا بتساويهما في القدم، واختلفا في الجوهر والطبع والفعل والخير والمكان والأجناس والأبدان والأرواح.

(٨) الملل والنحل ١/٢٤٤: يقول الشهرستاني: المانوية أصحّاب ماني بن فاتك الحكيم الذي

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر ان المانوية تكذب
وقاك ردى الأعداء يسري عليهم وزادك فيه ذو الدلال المحجب

يقول للممدوح إنك تفعل الخيرات في ظلام الليل وتنال الظفر بأعدائك في الليل. ومن مذهب الثنوية أن الظلام ليس فيه ولا عنده خير، وأنت أيها الممدوح قد نصرت على أعدائك ونلت المطلوب من مرادك في ظلام الليل، وهذه الأحوال تكذب المانوية الذين يقولون تلك المقالة، وشر الشرور إبليس اللعين، والله خلقه وبث الشر منه.

وقيل لقدري: كيف يقول ما خلق الله شراً وهو سبحانه يقول: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ فقال: لست أقرؤها هكذا. قيل له فكيف تقرؤها؟ فقال: من شر ما خلق، فينوّن شراً ويجعل ما نفيّاً. فتعجبوا يا أولي الألباب من هذا العجب العجائب، يفسدون القرآن ويخالفون ربهم حتى يصلحوا إعتقادهم ومذهبهم.

وفيما أخذناه عن سيدنا الفقيه الشيخ أبي القاسم رضي الله عنه ما أخبرنا به عن رسول الله ﷺ أنه قال لأبي بكر رضي الله عنه: «يا أبا بكر لو أراد الله أن لا يعصى لما خلق إبليس».

■ ظهر في زمان سابور بن أردشير، وقتله مهران بن هرم بن حرمز بن سابور، وذلك بعد عيسى ابن مريم عليه السلام. أحدث دينا بين المجوسية والنصرانية، وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام.

حكى محمد بن هارون المعروف بأبي عيسى الوراق، وكان في الأصل مجوسياً عارفاً بمذاهب القوم: أن الحكيم ماني زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين: أحدهما نور، والآخر ظلمة، وأنها أزليان لم يزالا ولن يزالا، وأنكر وجود شيء إلا عن أصل قديم، وزعم أنها لم يزالا قوين حساسين، داركين سميعين بصيرين، وهما مع ذلك في النفس، والصورة، والفعل، والتدبير، متضادان، وفي الحيز متحاذيان تحاذي الشخص والظل.

(١) ٢: الفلق.

فصل في ذم القدريّة

مما أورده الشيخ الفقيه أبو القاسم رحمه الله في كتاب « الاملاء » له الذي أملاه علي وأنا اكتب ، من ذلك ما حدثنا به بإسناده إلى رافع بن خديج ، مما حمّله سعيد بن المسيّب ، ذكر ذلك عمرو بن شعيب قال : كنا عند سعيد بن المسيّب فذكروا رجالاً يقولون : قدر الله كل شيء ما خلا الأعمال ، قال : فوالله ما رأيت سعيداً غضب غضباً قط أشد منه يؤمئذ حتى هم بالقيام ، ثم أنه سكن ، فقال أتتكلّمون به؟ والله لقد سمعت فيهم حديثاً كفى بهم شراً ويحهم لو يعلمون ، قال فقلت : يرحمك الله يا أبا محمد فما هو؟ قال : فنظر إلي وقد سكت بعض غضبه ، فقال : حدثني رافع بن خديج أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « يكون في أمّتي قوم يكفرون بالله وبالقرآن وهم لا يشعرون ، كما كفرت اليهود والنصارى . قال فقلت : جعلت فداك يا رسول الله كيف ذلك؟ قال تقولون ببعض وتكفرون ببعض ، قال قلت : جعلت فداك يا رسول الله فكيف يقولون؟ قال : يجعلون إبليس عدلاً لله في خلقه وقوّته ورزقه ، ويقولون الخير من الله ، والشر من إبليس ، قال : فيكفرون بالله ، ثم يقرأون على ذلك كتاب الله ، فيكفرون بالقرآن بعد الايمان والمعرفة ، قال : فما تلقى أمّتي منهم من العداوة والبغضاء والجدال ، أولئك زنادقة هذه الأمة في زمانهم يكون ظلم السلطان ، فيا له من ظلم وحيف واثراء ، ثم يبعث الله تعالى طاعوناً فيفنى عامتهم ، ثم يكون الخسف ، فقل من ينجو منه المؤمن يومئذ ، قليل فرحه ، شديد غمّه ، قال : ثم يكون المسخ فيمسخ الله عامة أولئك قرده وخنازير ، قال : ثم يخرج الدجال على أثر ذلك قريباً ، ثم بكى رسول الله ﷺ حتى بكينا لبكائه ، ثم قلنا : ما هذا البكاء يا رسول الله؟ قال : فقال رسول الله ﷺ رحمة لهم الأشقياء ، فإن منهم المتعبد ومنهم المجتهد ، مع أنهم ليسوا بأول من سبق إلى هذا القول ، وضاق بحمله ذرعاً ، إن عامة من هلك من بني إسرائيل بالتكذيب ، أنه قال : فقلت يا رسول الله فقل لي كيف الايمان بالقدر؟ فقال : أن تؤمن بالله وحده وأنه لا يملك أحد معه ضرراً ولا نفعاً ، وتؤمن بالجنة والنار ، وتعلم أن الله تعالى خلقهما قبل الخلق ، ثم خلق خلقه فجعل من شاء منهم إلى الجنة ومن شاء إلى

النار، عدلاً منه كل ذلك، كل يعمل بما قد فرغ منه، وهو صائر إلى ما خلق له. فقلت صدق الله ورسوله.

ثم ذكر الفقيه طرق هذا الحديث وشرحه، فالتمسه في كتاب «الاملاء» له تجده إن شاء الله.

ومن ذلك. قال الفقيه ما رواه أبو هريرة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجالسوا أهل القدر ولا تفاتحوهم»^(١) قال الفقيه: فهذا الخبر في ذم القدرية، إذ هو ﷺ لا ينهى عن مجالسة أهل الدين إقتداء لما علمه الله تعالى إذ يقول في سورة مكية: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِئَنَّ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»^(٢).

وقد بين الله سبحانه عقوبة من فعل ذلك، وخالف ما أمره الله، إذ يقول في سورة مدنية: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا»^(٣).

فبين سبحانه بقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ ما كان أمرهم به من قوله في السورة المكية: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ مع القوم الظالمين ﴿ثُمَّ بَيَّنَّ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْمَدْنِيَّةِ أَنَّ مَجَالِسَةَ مِنْ هَذِهِ صِفَتِهِ لِحُوقِ بِهِ فِي إِعْتِقَادِهِ، وَقَدْ ذَهَبَ قَوْمٌ مِنْ أُمَّةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَى هَذَا الْمَذْهَبِ، وَحُكْمٌ بِمَوْجِبِ هَذِهِ الْآيَاتِ فِي مَجَالِسِ أَهْلِ الْبِدْعِ عَلَى الْمَعَاشِرَةِ وَالْمَخَالَطَةِ، مِنْهُمْ: أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، وَالْأَوْزَاعِيُّ، وَابْنُ

(١) رواه أبو داود في السنن كتاب السنة: باب القدر.

(٢) ٦٨: الأنعام.

(٣) ١٤٠: النساء.

المبارك، فإنهم قالوا في رجل شأنه مجالسة أهل البدع قالوا: ينهى عن مجالستهم فإن إنتهى وإلا ألحق بهم، يعنون في الحكم، قيل لهم: فإنه يقول: إني أجالسهم لأباينهم وأرد عليهم، قالوا: ينهى عن مجالستهم فإن لم ينته ألحق بهم.
قال: وفيما رواه أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مجنوس العرب وإن صاموا وصلوا، القدرية»^(١).

وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «القدرية مجنوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم»^(٢).
قال: وروي عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون في آخر أمتي قوم يتفقهون في دين الله ويقرأون كتاب الله كما يشرب الماء البارد لا يجاوز تراقيهم، يكذبون بأقدار الله عز وجل، هم مجنوس أمتي هم مجنوس أمتي هم مجنوس أمتي»^(٣).

وروي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل أمة مجنوساً وإن مجنوس هذه الأمة القدرية، فإن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم»^(٤).
قال: وروى أبو الزبير مرسلًا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن مجنوس هذه الأمة المكذبون بأقدار الله جل وعز، إن مرضوا فلا تعودوهم وإن لقيتهم فلا تسلموا عليهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم»^(٥).

وخرَّج أبو داود حديث ابن عمر فيهم الذي سقناه.
وخرَّج عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل أمة مجنوس، ومجنوس هذه الأمة الذين يقولون لا قدر، ومن مات منهم فلا تشهدوا جنازته، ومن مرض منهم فلا تعودوهم، وهم شيعة الدجال، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال»^(٦).

(١) لم أقف عليه في المصادر التي بين أيدينا. (٢) مرّخرجه ص/١٠٧.

(٣) لم أقف عليه في المصادر التي بين أيدينا.

(٤) رواه ابن عدي في الكامل ٢٣١٧/٦ باب من اسمه مسلمة بن علي أبو سعيد الخشنى الشامي.

(٥) رواه ابن ماجه في السنن في المقدمة: باب في القدر. وقد رمز له السيوطي بالصغف الجامع الصغير ١/٣٧٤.

(٦) رواه أبو داود في السنن كتاب السنة: باب في القدر.

خبر غيلان القدري ومثله على كفره بالقدر

ونورد ها هنا خبر غيلان القدري ومثله على كفره بالقدر. قال بعض المصنفين الأخبار، قال عون: بلغ أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان، أن غيلان القدري يتكلم في القدر، فبعث إليه ونهاه، فقال: يا أمير المؤمنين إبعث إلي من يكلمني وينظرني بين يديك فإن ظفر بي فاقتلني، وإن ظفرت به فما لك علي من سبيل، قال: فبعث أمير المؤمنين إلى الأوزاعي فأتاه فأخبره بما قال غيلان القدري، فقال له خاطبه وناظره وحاججه فوالله لئن ظفرت به لأقتلنه. فقال له الأوزاعي: تسألني أو أسألك فقال له القدري: سألني ولا تكشره، فقال له الأوزاعي: أسألك عن أربعة أشياء وبعدها أربعة أخرى، هل علمت أن الله قضى على ما نهى عنه؟ فقال له: قضى على ما نهى عنه ما عندي من هذا علم؟ فقال له الأوزاعي: هل علمت أن الله حال دون ما أمر به؟ فقال القدري: هذه أعظم من الأولى ما عندي من هذا علم، فقال الأوزاعي: هل علمت أن الله أعان على ما حرم؟ فقال القدري: هذه أعظم من الإثنتين، ما عندي من هذا علم؟ فأمر به هشام فقتل^(١)، ثم قال هشام للأوزاعي: يا أبا عمرو تكلمت ففسره، قال الأوزاعي: سألته عن ثلاث كلمات من كتاب الله تعالى: قلت له: هل علمت أن الله تعالى قضى على ما نهى عنه، نهى آدم عليه السلام عن أكل الشجرة وقضى عليه بأكملها. وقلت له: هل علمت أن الله حال دون ما أمر به، أمر إبليس بالسجود وحال بينه وبين ذلك، وقلت له: هل علمت أن الله عز وجل أعان على ما حرم حرم الميتة وأعان المضطر على أكلها. ثم قال هشام أخبرني عن الرابعة ما هي؟ قال: كنت أقول له أخبرني عن

(١) محاسن المساعي في مناقب الامام الأوزاعي ص ١٠٦ / روى محمد بن كثير نحو هذه القصة فانظرها.

- وغيلان القدري هذا هو عيلان بن مسلم. أخذ القول بالقدر عن معبد الجهني. وفي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز جاء به واستتابه، ثم قتله هشام بن عبد الملك بن مروان. أنظر الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٣٠، لسان الميزان ٤/ ٤٢٤.

مشيبتك أهي متفقة مع مشيئة الله أو مشيتكم دون مشيئة الله تعالى؟ فأيهما أجابني فيه حلّ دمه. ثم قال هشام للأوزاعي فأخبرني عن الأربعة الأخرى ما هي وما كنت تقول له؟ قال الأوزاعي: كنت أقول له أخبرني عن الله عز وجل خلقك كما يشاء أو كما شئت؟ قال: فكان يقول كما شاء. ثم أقول له: أخبرني عن الله عز وجل يرزقك إذا شئت أو إذا شاء؟ فإنه كان يقول: إذا شاء ثم أقول له: أخبرني عن الله عز وجل يتوفاك إذا شئت أو إذا شاء؟ فإنه كان يقول: إذا شاء، ثم أقول له: فإذا توفاك أين مصيرك حيث شئت أو حيث شاء؟ فإنه كان يقول: حيث شاء. ثم قال الأوزاعي: يا أمير المؤمنين من لم يمكنه أن يحسّ خلقه ولا يزيد في رزقه ولا يؤخر في أجله ولا يصير نفسه حيث شاء فأبي شيء في يديه من المشيئة؛ قال هشام: صدقت يا أبا عمرو. قوله: فأبها أجاب به حلّ دمه، تفسيره كلام علي عليه السلام لقدري: إن زعمت أنك تملكه مع الله فقد جعلت مع الله مالكا، وإن زعمت أنك تملكه دون الله فقد جعلت من دون الله مالكا. قال الأوزاعي: يا أمير المؤمنين إن القدرية ما رضوا بقول الله عز وجل، ولا بقول الملائكة، ولا بقول الأنبياء عليهم السلام الخبر الذي أوردناه في صدر الكتاب، وبيننا فيه ما قال الله عز وجل، وما قالت الملائكة إلى آخر الخبر، إلا أنه قال في هذا الخبر، أما قول الله عز وجل فإنه قال ﴿فَأَجْنِبْنِي رَبِّهِ، فَجَعَلَهُ مِنْ الصّٰلِحِينَ﴾^(١) ومرّ إلى آخره على ما كنا شرحناه.

وأما حديث علي عليه السلام مع القدري، فإن علياً عليه السلام مرّ بنفر من أصحابه فقالوا له: يا أمير المؤمنين إن هذا يقول أن أفعاله تكون بمشيئته؛ فقال له علي عليه السلام: أخبرني هل ملكك الله شيئاً فانت تملكه أم لا؟ فقال: نعم ملكني صلاتي وصيامي وحجي وجهادي وعتق رقيقتي وطلاق نسائي. فقال علي عليه السلام: أشيئاً مع الله تملكه أم شيئاً دون الله تملكه؟ قال: إني لا أسمع. فقال علي عليه السلام: إني لأتكلم بلسان عربي مبين إن زعمت أنك تملكه مع الله فقد جعلت مع الله مالكا وإن زعمت أنك تملكه من دون الله، فقد جعلت من دون الله مالكا.

(١) ٥٠: القلم.

وفي رواية قال علي عليه السلام: وأيّها قلت أخذتُ الذي فيه عينك، فبُهِتَ وانقطع. وسأل علياً عليه السلام بعض أصحابه: فقال يا أمير المؤمنين أرايت أفعالنا هي خلق الله أم لنا؟ فقال: الله خلقها وأنت تعملها لا تسأل عن هذا أحد غيري.

قال الفقيه أبو القاسم: كل ذلك وردت عنه عليه السلام بالأسانيد الصحاح، والأقوال الواضحة، تأمل قوله: الله خلقها وأنت تعملها، أخبرك أن الله خالقها، وأنه خالق كل شيء، ولا خالق سواه. قوله: وأنت تعملها إشارة إلى ما شرحناه أولاً لك في معرفة الكسب، وما يصدر من الإنسان على وجه المحاولة له والايثار كما ورد في القرآن: بما كنتم تعملون وبما كنتم تكسبون ويعلم ما تفعلون. كما تقول هذا لونها، وهذه صحتك، وهذا أيضاً فعلك وعملك وكسبك، لكل ما حاولته وآثرته على الترك، فعند المحاولة أجرى العادة وطرده السُنَّة أن يخلق القدرة عليه، ويخلق لك الفعل الاختياري المخالف لحركة الارتعاش التي ليست هي بمحاولتك ولا إرادتك ولا مقرونة بقدرتك، وكذلك الزجّ في الصَّبِّ إذا كنت قائماً على جبل عال، وقدامك صَبٌّ^(١) إلى أسفل الجبل، وزجّك زاح من علو الجبل في ذلك الصَّبِّ، أو تعاطيت إن خطوت خطوات ثم هبته، فأردت الوقوف والرجوع، فلم تجد لذلك سبيلاً فانظر إلى حركاتك، ونقل أقدامك، هل هي واقعة بحسب إرادتك ومشيتك وقدرتك؟ أو بخلاف ذلك، وإنك لتفترق الآن بين من يقطع المسافة إختياراً أو بين من يقطعها سحياً أو زجاً كحركة الارتعاش وحركة تماثلها في يدك واقعة بمشيتك واختيارك، والكل من الفعلين خلق الله وإنما أحدهما وقع بقدرة الله لا بقدرتك وبمشيئة الله لا بمشيتك، والآخر وقع بقدرة الله ومشيتته لكن مع محاولة منك وإيثار، فنسب إليك بهذا الوجه، فيقال هذا عملك وفعلك وكسبك، كما يقال هذا لونها وصحتك وشبَّعَكَ ورِيكَ وما أشبهه، فصار ما يكتسبه الإنسان خلقاً لله دون الإنسان وكسباً للإنسان دون الله، والكسب محال وجوده من الله، كما أن الخلقَ والايجادَ محال وجودُهُ من الإنسان فاعلم.

(١) الصَّبُّ في الوادي: انحدار. انظر ترتيب القاموس المحيط ٧٩١/٢.

وسنورد لك إن شاء الله تعالى فصلاً من كلام الفقيه أبي القاسم في هذا المعنى، إن شاء الله تعالى.

ثم أن الفقيه وفقه الله أشار إلى خبر القدري مع جعفر الصادق رضي الله عنه، في قوله: يا ابن بنت رسول الله ﷺ تعالى الله أن يخلق الفحشاء فأجابه: وجلّ ربنا أن يكون في ملكه ما لا يشاء الخبر الذي قدمناه في صدر الكتاب. فإن قال قائل: فإذا قلتم إن حركة الارتعاش لم تقتزن بها قدرة العبد، واقتربت قدرته بالحركة الاختيارية فقد صارت القدرة مؤثرة في مقدورها، وصار العبد شريكاً مع الله في إحداث مقدوراتِهِ الاختيارية التي تسمونها كسباً؟

فالجواب إنا نقول: إن تعلق القدرة بالمقدور، كتعلق سائر الصفات به، وإن تعلقها به لا يقتضي إنشاء المقدور وإبداعه، ولا إبداع وصف فيه، كما أن العلم يتعلق بالمعلوم ولا يقتضي حدوثه معنى فيه، وهذه الارادة تتعلق بالمراد، ولا تؤثر في إبداعه ولا إبداع معنى فيه، وهذه الرؤية تتعلق بالمرىء، فلا تحدثه الرؤية ولا تحدث معنى فيه، ولا تؤثر فيه، وهذا السمع يتعلق بالمسموع ولا يؤثر فيه، ولا في وصف له فيقال هذا معلوم لفلان ومراد له ومرىء له ومسموع، فكذلك يقال هذا مقدور لفلان لتعلق قدرته به لا غير، وهو تعلق اقتران لا تعلق إحداث وهذه أوصاف كلها معقولة كما ترى من غير أن تقتضي إحداث المقدور ولا إحداث وصف فيه، غير أن القدرة تعلقها بالمقدور مخالفة للعلم والارادة والادراك، كما أن العلم مخالف في تعلقه للادراك والارادة والقدرة، فاعلم ذلك، وقد نجز المقصود والله المنة.

فصل

وقد رأيت سلك الله بك طريق هدايته أن أنقل لك فصلاً مقنعاً أملاه الشيخ الفقيه أبو القاسم علي بمكة حرسها الله ، عندما سأله سائل عن القدر وما يجب على المكلف إعتقاده فيه؟ فقال رضي الله عنه من الحق المبين ، الذي لا ريب فيه ، واليقين الذي لا شك يعتريه ، إن الله تعالى خالق كل محدث ، ومبتدع كل مخترع ، لما دلّ عليه من الدلائل العقلية والشرعية .

أما العقلية : فجهل المختار منا للفعل بتفاصيل إرادته ومراداته ، ولا بد من معرفة المرید بمراده ، ليتحقق اختياره له ، ولا يصح أن يكون خالفاً بالاختيار على ما شرحناه في مسألة الكسب ، وفي غير موضع .

وأما الشرعية : فأولها قال الله سبحانه : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ۝۵
وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝۶ فَسَنِيْسِرُهُ لِلْيُسْرَى ۝۷ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝۸
وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝۹ فَسَنِيْسِرُهُ لِلْعُسْرَى ۝۱۰ ﴾ .

فأخبر أن تيسير الأعمال إنما هو به . وقال سبحانه : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝۷
فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝۸ فَبَيَّنَ أَنْ الْفُجُورَ وَالتَّقْوَى بِأَلْهَامِهِ لِلْفَاجِرِ وَالتَّقِي ،
وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِّرَكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ ^(١) فأخبر أنه خلقهم

(١) ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ : الليل .

(٢) ٧ ، ٨ : الشمس .

(٣) ٢ : التغابن .

كفاراً ومؤمنين . كما قال : ﴿ فَأَنزَجْنَاهُ مُمْرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَنُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴾ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلَّا نَعْلِمَ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ (٢٨) ﴿ كذلك فبين أنه خلق ألوانها كما خلق ذواتها . وقال تعالى : ﴿ وَأَخْتَلَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانَكُمْ ﴾ (٢٩) ﴿ فأبان أنه خلق اللغات والخطاب ، وجعل وجود ذلك دلالة عليه سبحانه ، وإنما يدل عليه سبحانه فعله كما أن فعل غيره يدل على فاعله ، وقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٣٠) أي خلقكم وأعمالكم . وقوله ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا تَخْلِيقَهُ فَتَشَبَّهُوا الْخَلْقَ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٤١) .

وأما السنة : فأكبر من أن تحصى وأقرب ذلك قوله ﷺ : « إن الله خالق كل صانع وصنعه » (٥) فنص على أنه خالق الصنعة كما أنه خالق الصانع . وقوله عليه السلام : « تم العلم وجف القلم وأمور تقضى في كتاب قد خلا » (٦) فأخبر أن القضاء جارٍ بحسب ما كتب في الكتاب الأول قبل خلق الخلق ، وقولهم : ف فيما العمل يا رسول الله ؟ فقال : « أما من كان من أهل السعادة فيسير لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فيسير لعمل أهل الشقاوة » (٧) وكقوله في

(١) ٢٧ ، ٢٨ : فاطر .

(٢) ٢٢ : الروم .

(٣) ٩٦ : الصافات .

(٤) ١٦ : الرعد .

(٥) رواه البيهقي في الاعتقاد والهداية / ٩٣ / باب القول في خلق الأفعال .

(٦) الذي في مسند احمد ٢٩٣ / ١ : « ... رفعت الاقلام وحمت الصحف » ، وفي ٣٠٧ / ١ :

« ... قد جف القلم بما هو كائن » ، وفي البخاري كتاب القدر : باب حف القلم على علم

الله « ... حف القلم بما است لاق » .

(٧) تقدم حريجه ص / ١٠٥ .

كيفية الايمان بالقدر لما سئل عن كيفية الايمان به قال: « أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وأن تعلم أن الله خلق الجنة ، وخلق منازل أهلها فيها قبل خلقهم ، وخلق النار وخلق منازل أهلها فيها قبل كونهم ^(١) » .

وقوله ﷺ : « إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين ليلة ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغاً مثل ذلك ، ثم يبعث الله عز وجل ملكاً فيؤمر بأربع كلمات ، فيكتب عمله وأجله ورزقه وأشقى أم سعيد ^(٢) » . ومثله قول ابن عباس رضي الله عنه في قصة الغلام الذي قتله الخضر عليه السلام : « وأما الغلام فطبع يوم طبع كافراً ^(٣) » لا تغفل عن نكتته . النكت مذهب هؤلاء المذبذبين ، إنهم يعتقدون أن الله تعالى حكيم ، فلا يصدر منه لأحد من خلقه ظلم ، فيخرج عن الحكمة ، ولا يظلم مثقال ذرة ، ونحن نقول ، أنه كيف ما تصرف في خلقه فلا ينسب إليه ظلم ، لأنه تصرف في ملكه بما شاء كيف شاء ، فالظلم لا يتصور منه .

وفي أمره للخضر عليه السلام بقتل الصبي وهو دون البلوغ جورٌ عظيم ، وظلم كبير على مقتضى مذهبهم . وقول علي عليه السلام وقد سئل عن أفعال العباد في خلقها؟ قال: الله خلقها وأنت عملتها ، لا تسئل عن هذا أحداً غيري . فنص على خلق الله تعالى للأعمال ، وعلى نسبتها إلى العبد بأنها عمله من حيث الاكتساب ، وكانت نسبة العمل إلى العبد على حد نسبة اللون الموجود فيه والشبع والري والصحة والسقم ، فالموت والحياة له ، فيقال لونه وشيعه ورية وصحته وسقمه كذلك يقال عمله .

والفرق بين هذه وتلك بالاضافة إلى العبد أن الله خلق في العبد صفة متعلقة بحركاته وسكناته وصلاته واجتهاده واكتسابه ، ولم يجعل لتلك

(١) روى الترمذي أوله بنحوه في أبواب القدر: باب ما جاء أن الايمان بالقدر خيره وشره .

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب التوحيد: باب قول الله تعالى ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ .

(٣) رواه الترمذي في السنن كتاب التفسير: باب تفسير سورة الكهف .

الصفة تعلقاً ببلونه وحياته وموته وشيعه وريّه ، وهي الصفة التي يفرق بها الانسان حساً بين كونه قاطعاً للمسافة سحياً وجذباً ، ودفعاً وزجاً ، وبين قطعه لها اختياراً وإيثاراً ، وبحسب المشيئة إذا تحققت هذه الجملة . فاعلم أن الشرع رتب على العبد مطالبات بأفعاله التي هي اكتسابه كما بيّناه أمراً وزجراً وندباً ، ولم يرتب هذه المطالبات في القسم الآخر ، والذي هو ملازم له لا بمحاولة منه ، ثم أجرى العادة وطرده السنة أنه متى حاول الفعل الذي هو اكتسابه واختاره اعطاه القدرة وخلق معها الفعل الذي حاوله ، ومتى أثر الترك وفعل الضد فعل له ذلك على حسب اختياره العادة جارية ، وسنة مطردة ، وأجرى التكليف والأمر والنهي على هذا النحو ، ولأجله حسن الامتنان بقوله :

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ^(١) ﴾ وأجرى التكليف كذلك ، فإذا تقرر هذا . فاعلم إذن أن الذي كلف الله سبحانه العباد تكليفان :

أحدهما : الايمان بالقدر وصفته كما وصفه ﷺ في قوله « وان تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ^(٢) » . وتحقيق هذا الايمان أن يدفع عن نفسك لو وليت ولولا فلا تقول ليتني فعلت كذا ، إذ المقدور لا بد كائن ، وأمر الله على كل حال نافذ وكذا فلا تقول : لو كان كذا لكان كذا ، فلا يكون إلا ما شاء الله وما قضاه وما قدره وأمضاه .

وكذا أيضاً فلا تقول لولا كذا لم يكن كذا لأن أمر الله نافذ ، وقضائه وقدره ماضيان ، هذا كله فيما ليس عندك فيه من الله خبر ، فإنه سبحانه قدر الأشياء على جهتين مطلقة ومعلقة :

فالمطلقة : كما أبدع الأشياء لا من شيء ، فقال لما شاء منها كن فكان .

والمعلقة : كقوله تعالى ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّرَّ

(١) ٢٨٦ : البقرة .

(٢) تقدم تخريجه .

تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَغُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا^(١) ﴿٤﴾.

وقول النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «يا أبا بكر لو أراد الله أن لا يعصى لما خلق إبليس^(٢)». فأعلمنا الله سبحانه كيفية جريان قدره في تخليق هذا المخلوق وهو تعذيب المشركين من أهل مكة على أي وجه يكون، وأنه لا يكون إلا بشرط، وإن المؤمنين والمؤمنات من بينهم، ومثله ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ^(٣)﴾.

وقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ^(٤)﴾.

وأمثال هذه الآيات، وحسن من الله سبحانه ذلك لعلمه بمجاري أقداره، وكيف جرى تقديره في خلقه، وحسن هذا من رسول الله ﷺ لعلمه ذلك من الله تعالى بالوحي في قوله: «لو أراد الله أن لا يعصى لما خلق إبليس أو لم يخلق إبليس» أو كما قال عليه السلام، واستقام ذلك النبي ﷺ ولم يستقم لغيره، لجهل الغير بعلم الله وتقديره. وهو معنى نهيه عليه السلام عن الخوض في سر القدر؛ وقد فسر النبي ﷺ ذلك في خبر الفارسين والحطاب اللذين أخذ أحدهما مال الآخر، وقتل الآخر الحطاب، ووحى سبحانه إلى نبيه، أن أبا هذا أخذ مال أبي صاحبه فردد عليه ماله، وأن الحطاب قتل أبا القاتل فاقدته به، ولا تعارضني في قدرتي.

(١) ٢٥: الفتح.

(٢) رواه البيهقي في الأسماء والصفات / ١٥٧ / الباب الرابع من أبواب قول الله عز وجل ﴿وَنَفَرُ الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ وكتاب الاعتقاد والهداية / ١٠٤ / باب القول في وقوع أفعال العبد بمشيئة الله عز وجل.

(٣) ٣٣: الزخرف.

(٤) ٢٧: الشورى.

وكذلك الخبر الآخر عن أحد عباد بني إسرائيل ، عندما رأى بعض العصاة قد ارتكب بعض المعاصي فقال : « والله لا يغفر الله لهذا أبداً » فأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان ، قل للعابد أنت المتالي علي لا أغفر ، قد غفرت له وأحببت عملك ، فاستأنف العمل فلم يكن لأحد الخوض في تعيين قدر الله تعالى إلا بالوحي منه سبحانه . فهذا أحد التكليفين وهو إقامة الايمان بالقدر على حدوده

وأما التكليف الثاني : فالتزام أحكام الشريعة أقداماً وإنكفافاً ، فإذا نهانا الشرع عن تناول السمائم والتوجي بالحدائد إنزجَرنا عن ذلك ، ولا نقول لعل الأجل لم يحضرُ والسيوف مأمورة ، ولا صادٌ إلا الله ، ولعل الجاري في قدر الله دَوَامُ البقاء ، ولا يكون إلا المقدور ، فالحال في التكوين هذا ، لكن لا بد من إعطاء النهي الشرعي حقه والانكفاف عن المهلكات في العادة ، وكذلك في الوقوف عن امتثال الأوامر وترك التوجه إلى الحج مثلاً في أوانه حين تعيين التكليف ، وترك النهوض إلى الصلوات اعتماداً على أن الله سبحانه إذا قضى الأثر بموضع فلا بد من بلوغه ، وإذا قدر النهوض إلى الصلاة فلا بد من وقوعه ، فلا بد من النهوض للقيام بحقوق العبادات على ما جرت به العادات ، فمن أخل بذلك أخل بواجب العبادة ، وهو تكليف يجري على الجوارح والأعضاء .

ومن هذا الجنس قول القائل إن قدرَ أني من أهل السعادة فقد حصلت وإن قدرَ علي الشقاوة فلا ينفعني العناء الناجز وترك الشهوات التي النفس إليها تائفة فأكون قد جمعت على نفسي بلاءين : حرمانها شهواتها ومحبوباتها في العاجل ، وحرمانها بما جرى عليها القضاء في الأجل ، فليس الحال على ذلك والقدر نافذ على كل الأحوال والقيام بحقوق الواجبات .

والتكاليف هو وظيفة الحاضر ، وهو معنى قول عليه السلام لمن قال له : أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل فقال : « لا ، إعملوا وسددوا وقاربوا فكل ميسر لما خلق له » ^(١) .

(١) في مسلم بدون : « اعملوا وسددوا وقاربوا » في أول كتاب القدر ، وأيضاً في ابن ماجه في المقدمة : باب في القدر وأيضاً في البخاري في تفسير سورة ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ ، وفي كتاب الأدب : باب الرجل ينكت الشيء يبدء في الأرض ، وفي أول كتاب القدر . أما لفظ « سدّدوا »

فأمرنا بالعمل للقيام بحقوق التكليف والنهوض بحق امتثال الأوامر الشرعية، والانكفاف عن الزواجر الواردة في الشريعة، فإياك أن يختلط عليك ترك أحد التكليفين، والاخلال بإحدى العبادتين فتقيم حقوق التكليف في الإيمان بالقدر إيماناً لا يتعارك معه الشكوك في استدفاع ضرراً واستجلاب سراء وندم على ترك الفعل لأجل فوات مطلوب، فالتشكيك في شيء منه قاذح في الإيمان بالقدر، وإخلال بهذه الوظيفة من التكليف، وإياك أن تقدم على المهالك أو تتعرض للمعاصي أو المعاطب للاستيناس بهذا الإيمان، فتُخلَّ بالقيام بحقوق العبادة في الامتناع مما أوجب الشرع الامتناع منه، فأعط كلا من العبادتين حقها هذا في الاعتقاد والتصديق، وذلك في الأقدام والانزجار، فحينئذ تكون قد نهضت بواجب الإيمان والطاعات، وهذا المعنى هو الذي أشار إليه ﷺ بقوله: «اعملوا وسددوا وقاربوا». فحث على القيام بحقوق التكليف في العمل ثم قال: «فكل ميسر لما خلق له» كأنه يقول وإياك أن تظن أنك لما أمرت بالتشديد والمقارنة إنما أمرت بذلك لتجري عليك المقادير بحسب هواك في استجلاب النفع ودفع الضرر، ولكن تيقن أن الأمر يجري عليك بحسب إرادة الله سبحانه فيك، وإجرائه قدره عليك بأن لا تُيسرَ إلا لما خلقت له من خير أو شر، ومعافاة أو بلاء أو إيمان أو كفر، فاعرف هذه الجملة فهي مما يكثر غلط الخائفين في هذا الفن فيه سدك الله وأرشدك، وشرح للإيمان صدرك، ويسر لطاعته حركاتك وسكناتك، وغفر لنا ولك ولسائر المسلمين، والحمد لله وصلواته على محمد وآله وسلامه.

قال الشيخ الفقيه أبو القاسم رضي الله عنه، مجموع ما اشتمل عليه هذا القول أن الله تعالى ألزم كل مكلف تكليفين:

أحدهما: إعتقاد، وهو الإيمان بجريان القدر بحسب تقدير الله.

والثاني: إقامة العبادات، فلا تخل بالعبادات لأجل الاعتقاد، ولا بالاعتقاد لإقامة العبادات فحينئذ يكون المكلف قد نهض بوظيفة التكليفين، وقام بحقوق العبادتين. هذا آخر كلام الفقيه يرحمه الله.

■ وقاربوا، فهو جزء من حديث رواه أحمد في مسنده ١٢٥/٦، وابن ماجه في الزهد: باب التوقي على العمل، والبخارى في صحيحه كتاب الإيمان: باب الدين يسر، والترمذي في سننه، باب القدر باب ما جاء في الشقاء والسعادة.

فصل :

يا من استبعد أن تكون أفعال العباد خلقاً لباريء العباد، إنفرد بخلقها دون خلقه أتريد أن تشاهد خلق الله لها ضرورة ولا يلحقك شك ولا ارتياب في أن الله خالق أفعال العباد، فقد أرشدك مولك ان كنت تعقل، فقال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(١) تأمل قراءتك القرآن وأنت تحفظه حفظاً بليغاً، هل إذا قرأت تعرف نظم الكلم بعضها إلى بعض، وضم الحروف بعضها إلى بعض حتى إذا قلت: بسم الله الرحمن الرحيم. تقصد الكلمة فتجعله جذاء الكلمة التي قبلها، والحرف حذاء الحرف الذي قبله، فتبتديء بالباء ثم بالسين ثم بالميم قاصداً إلى ذلك حتى تنتهي إلى آخر ما تقرأه، والله إنك لتعلم من نفسك وكل قاريء مثلك ذهولك عن ترتيب الحروف والكلم شيئاً فشيئاً. والدليل على ذلك وأنت تعلمه أنك تقرأ الآية والسورة وأنت ساوٍ ذاهل لاه، تأمل قولي لك وقراءتك تجد ما قلته لك ونبهتك عليه، لا يعتربك فيه ريب ولا شك، وإن غالطت نفسك وقلت أنا الذي أتى بالكلم وأرصفها وبالحروف وأنظمتها فالحس يكذبك، والمشاهدة تُخجلُك، وهو إذا وقفت في أثناء محفوظاتك وتتحير فلا تعرف ما بعد الموقوف عليه، ولا جرى لسانك بل كأنك لم تحفظه قط، وربما قطعت القراءة وركعت ثم أخذت المصحف فتنظر الكلمة التي غربت عليك فتخرجها ثم تعود إلى قراءتك أو إسترشدت قارئاً إن كان حاضراً فإذا عرَّفَكَ الآية أخذت تتعجب من نفسك، وربما قرأتها مرة أخرى فوقفت عليها ولم يفتح لك بما بعدها كما وقفت أولاً، ثم تجتهد في أن تعرفها وتقول قد ردها علي فلان يوم كذا، أو يلحقك هذا في أيسر السور المحفوظات ولا وقفت فيه قط لا سيما وقد جاء في تفسير قوله تعالى ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾^(٢) الآية. إن رسول الله ﷺ كان إذا جاءه جبريل يقرئه القرآن يستعجل ﷺ قصداً منه أن يضبطه ولا ينفلت منه فأوحى الله إليه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾^(٣)

(١) ٢١ : الذاريات.

(٢) ١٦ : القيامة.

إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴿١٨﴾

وقال في موضع آخر ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى﴾ (١٩)

وهذا يُشبه ما قرره الشيخ الفقيه أبو القاسم رحمة الله عليه ، في الدليل القاطع على أفعال العباد وفي مسألة الكسب له ، وفي كتاب « الاملاء » وفي غير موضع من كلامه ، وبينه في حركة اليد الاختيارية دون حركة الارتعاش ، فإن القدرية وافقونا في حركة الارتعاش أنها خلق الله تعالى ، وخالفوا في حركة الاختيار لأجل إقترانها بقدرة العبد وإرادته فقالوا هذه من خلقنا دون الله تعالى :

قال الفقيه : لا يصح لفاعل شيء أن يكون فاعلاً له على الجملة غير فاعل له على التفصيل ، والفاعل لهذه الحركة الاختيارية لا يصح أن يكون خالقاً لها إلا بعد القصد إلى كل جزء فيها ، والفاعل المحرك منا ذاهل عن تفاصيل أجزائها غير عارف بكمية أعداد أجزائها ومراداته منها وكيفياتها ، ومن أنصف من نفسه أقر بالعجز عن ذلك كله . ولو سئل القدري عن جملتها وهو المحرك ليده ، وقيل له : إن كنت خالقاً لها وفاعلاً لها على زعمك ، فهل تعلم أجزاء الحركة على التفصيل حتى تعلم كم جوهر قطعته وكم حركة قامت بتلك الأجزاء بهم ، ومن أين ابتدأت الحركة بما قطعته من الأحياز ، وإلى أي موضع انتهت ووقفت اليد عنه ، وأين جهة إرتفاعها وأين جهة إنخفاضها ، وإن كنت أنت خلقتها وأنت فاعلها فحرك يدك حركة مثلها في أعداد أجزائها وأعداد حركاتها القائمة بها ، وابتدأ في حيث ابتدأت أولاً ، وقف حيث انتهت يدك أولاً ، ولا تعلي يدك فوق الجهة التي كانت أولاً ، ولا تخفضها عنها ، ولا اليد مسرعة في حركتها ، بل على نحو الحركة الأولى . وقيل له : إن كنت تعلم ذلك كله فاذكره صادقاً ، فإن أنصف قال : ما أعلم شيئاً من ذلك فيقال : فابحث عن من يعلم ذلك كله على النحو الذي شرحناه ، فإن وجدناه فذلك هو الفاعل للحركة الموجد لها دون غيره ، ولا تجد ذلك إلا الواحد القهار ، لا إله إلا هو الخالق لكل شيء ، وهو الواحد القهار ، حقاً ، وقد نطق به الكتاب العزيز

(١) ١٨ ، ١٧ ، ١٦ : القيامة .

(٢) ٦ : الأعلى .

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتُخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا تَحْلِفُهُ فَنَنْشَبُهُ الْخَلْقَ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ^(١) ﴾.

وفي حكاية عن الجنيد ^(٢) رحمه الله عليه، قيل لعبد الله بن سعيد بن كلاب، وهو إمام وقته في علم الأصول رضي الله عنه: أنت تتكلم على كلام كل أحد، وما هنا رجل يقال له الجنيد، فانظر هل تعترض عليه أم لا، فحضر حلقته، فسأل عبد الله الجنيد عن التوحيد؟ فأجابه، فتحير عبد الله في كلامه وحسن جوابه. وقال أعد علي ما قلته فعاد ولكن لا بتلك العبارة، فقال عبد الله: هذا شيء أجدني لم أحفظه فأعد علي به مرة أخرى فأعاد بعبارة أخرى، فقال عبد الله: ليس يمكنني حفظ ما تقول أمله علي، فقال: إن كنت أجريه فأنا أمليه، وقام عبد الله: وقال بفضلته، واعترف بعلو شأنه. فانظر وتأمل كلامه إلى آخر ما أسده، وأبلغه، وما أدله على ما قلناه في هذا الفصل عند قراءة القاريء للقرآن على ما قدمنا وبيناه، وبما أحسن هذا الجواب وما أسده وما أبلغه وما أعلاه في تفهيم مقصودنا، حيث قال: ابن كلاب: ليس يمكنني حفظ ما تقول أمله علي، فقال له الجنيد: إن كنت أجريه فأنا أمليه وما أسرع بديهته وأسد مقالته يتصاغر عنده روية أهل الأصول والبلغاء والفصحاء، ولو أجبت عنها بملء صحيفتين وثلاث وأربع لما بلغت مبلغ هاتين الكلمتين في إفهام من يقول إني خالق لفعلي، والله ولي التوفيق من أراد من خلقه.

(١) ١٦: الرد.

(٢) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد الخزاري، الزاهد المشهور، أصله من نهاوند، ومولده ومنشؤه العراق، وكان شيخ وقته، وفريد عصره. وكلامه في الحقيقة مشهور مدون، وتفقه على أبي ثور صاحب الامام الشافعي رضي الله عنهما، وقيل بل كان فقيهاً على مذهب سفيان الثوري رضي الله عنه... توفي سنة سبع وستين ومائتين، وقيل سنة ثمان وتسعين. انظر وفيات الأعيان ٣٧٣/١.

ونختم كتابنا هذا بدعاء نتمنّ به، وهو دعاء لبعض العارفين، مشاكل لمضمون كتابنا هذا لعل الله يستجيب لنا، ولعل يدعو به داع عند الوقوف عليه، فيصاف ساعة رافة ورحمة وإجابة لدعوة أخ في الله، حسن اعتقاده فينا، فيرحمنا الله بحسن نيّته، وقبول دعوته، وهذا هو الدعاء:

اللهم إني لم اعصك معاندة لك، ولكنّها مقاديرك التي قدرتها علي، ولا حجة لي في ذلك، بل الحجة البالغة لك، اللهم إني لم أعمل الحسنات إلا بما أعطيت، ولم أعمل السيئات إلا بما قضيت فلولا عطاؤك لكانا من الخاسرين، ولولا قضاؤك لكانا من الفائزين فجُد بما أعطيت على ما قضيت، حتى تغفر هذا بهذا يا أرحم الراحمين، اللهم إني أعوذ بك من ضر ينزل بي يضطرنني إلى معصيتك، ويحول بيني وبين أداء فرضك، وأعوذ بك أن أقول الحق أريد به سواك، وأعوذ بك أن أترين للناس بشيء يشينني عندك، وأعوذ بك أن يكون أحد اسعد مني بما أعطيتني، وأعوذ بك أن تجعلني عبرة للعالمين، وعلكأ في أفواه الماضغين برحمتك يا أرحم الراحمين، اللهم أبين رجائي وخوفي حتى لا أرجوك إلا خائفاً، ولا أخافك إلا راجياً، اللهم اجعل ثمرة خوفي منك الاقلاع عن معصيتك، وثمره رجائي فيك الاسراع إلى طاعتك يا أرحم الراحمين، والصلاة على سيد المرسلين محمد خاتم النبيين وعلى آله وأصحابه أجمعين إلى يوم الدين.

نجز الكتاب الموسوم «بحز الغلاصم في إفحام المخاصم عند جريان النظر في أحكام القدر» بحمد الله وعونه ومنّه وأحسانه وفضله وجوده وكرمه، إنه جواد كريم، ودود رحيم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم.

أتم الكاتب كتابة هذا الكتاب عام ٦٨٣ هـ.

الفهارس

- ١ - مصادر التحقيق
- ٢ - فهرس الموضوعات

١ - مصادر التحقيق

- الأسماء والصفات البيهقي
دار إحياء التراث العربي - بيروت
- أضواء البيان محمد الأمين الشنقيطي
عالم الكتب - بيروت
- الاعتقاد والهداية البيهقي
عالم الكتب - بيروت
- بغية الوعاة السيوطي
دار الفكر - بيروت
- تاج العروس مرتضى الزبيدي
المطبعة الخيرية القاهرة - ١٣٠٦ هـ
- ترتيب القاموس المحيط الطاهر الزاوي
دار المعرفة - بيروت
- التعريفات الجرجاني
دار الكتاب العربي - بيروت
- تفسير القرطبي القرطبي
دار إحياء التراث العربي - بيروت
- الجامع الصغير السيوطي
دار الفكر - بيروت
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة السيوطي
عيسى البابي الحلبي - القاهرة

البخاري	- خلق أفعال العباد	دار المعارف - السعودية
ابن فرحون	- الديباج المذهب	دار الكتب العلمية - بيروت
ابن ماجه	- سنن ابن ماجه	دار احياء التراث العربي - بيروت
لأبي داود	- سنن أبي داود	دار الكتاب العربي - بيروت
الترمذي	- سنن الترمذي	دار الفكر - بيروت
النسائي	- سنن النسائي	مصطفى البابي الحلبي - القاهرة
الذهبي	سير أعلام النبلاء	مؤسسة الرسالة - بيروت
ابن العماد	- شذرات الذهب	دار المسيرة - بيروت
القاضي عياض	- الشفا	مكتبة الفارابي - بيروت
البخاري	- صحيح البخاري	دار المعرفة - بيروت
مسلم	- صحيح مسلم	دار المعرفة - بيروت
ابن الاثير	- الكامل في التاريخ	دار صادر - بيروت
ابن عدي	- الكامل في الضعفاء	دار الفكر - بيروت

علاء الدين الهندي	مؤسسة الرسالة - بيروت	- كنز العمال
ابن منظور	دار صادر - بيروت	- لسان العرب
ابن حجر العسقلاني	مؤسسة الأعلمي - بيروت	- لسان الميزان
أحمد بن حنبل	دار صادر - بيروت	- مسند أحمد
الشهرستاني	دار المعرفة - بيروت	- الملل والنحل
ابن خلكان	دار صادر - بيروت	- وفيات الأعيان

فهرس الموضوعات

٥	- مقدمة المحقق
٧	- ترجمة المؤلف
٨	- مصادر الترجمة
٩	- وصف النسخ الخطية
١٧	- مقدمة المؤلف
٢١	- مخالفة المعتزلة لقول الله تعالى
٢٣	- مخالفة المعتزلة لقول الملائكة
٢٤	- مخالفة المعتزلة لقول الأنبياء
٢٧	- مخالفة المعتزلة لقول أهل الجنة
٢٧	- مخالفة المعتزلة لقول أهل النار
٢٨	- مخالفة المعتزلة لقول شيخهم إبليس
٢٨	- وجه آخر
٣١	- ما جرى بين المجوسي والقدرى
٣١	- قول آخر
٤٧	- فاتحة الكتاب
٤٨	- سورة البقرة
٥٠	- سورة آل عمران
٥٠	- سورة النساء
٥٥	- سورة المائدة
٥٦	- سورة الأنعام

٦١	- سورة الأعراف
٦٣	- سورة الأنفال
٦٤	- سورة التوبة
٦٥	- سورة يونس
٦٦	- سورة هود
٦٧	- سورة يوسف
٦٨	- سورة الرعد
٧١	- سورة إبراهيم
٧٥	- سورة الحجر
٧٦	- سورة النحل
٧٧	- سورة بني إسرائيل
٧٨	- سورة الكهف
٨٠	- سورة الأنبياء
٨١	- سورة الحج
٨١	- سورة النور
٨٣	- سورة القصص
٨٦	- سورة الروم
٨٦	- سورة السجدة
٩٥	- سورة الملائكة
٩٦	- سورة الصافات
٩٧	- سورة الزمر
٩٨	- سورة المؤمن
٩٨	- سورة الشورى
٩٩	- سورة الجاثية
٩٩	- سورة الحجرات
٩٩	- سورة القمر
١٠٠	- سورة المجادلة

١٠١	- سورة الملك
١٠١	- سورة ن
١٠١	- سورة المدثر
١٠٣	- سورة التكويد
١٠٤	- سورة الشمس وضحاها
١٠٥	- سورة الليل إذا يغشى
١٠٦	- سورة الضحى
١٠٧	- سورة الفلق
١٠٩	- فصل في ذم القدريه
١١٢	- خبر غيلان القدري ومثله على كفره بالقدر
١١٧	- فصل
١٢٤	- فصل
١٣١	- مصادر التحقيق
١٣٥	- فهرس الموضوعات

